محمد المبارك

DLC
2272
.6617
.392

الأمّة العربيّة

في معركة تحقيق الذات

منشورات
مؤسّسة المطبوعات العربيّة بدمشق
ص.ب ٨١٢

BOBST LIBRARY
3 1142 02824 4930

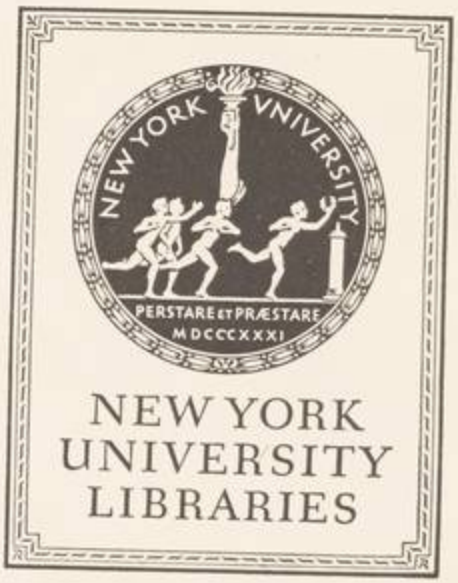

NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

al-Mubārak, Muhammad
/al-Ummah al-'arabīyah/ fī
ma'rakat tahqīQ al-dhāt

محمد المبارك

الأمة العربية

في معركة تحقيق الذات

front

يخوض العرب بعد معارك التحرر
المادي والمعنوي معركة اثبات الذات ،
ويستعدون لبناء الحضارة الانسانية بما
لهم من سابقة وتراث ، وقيم خالدة

منشورات
مؤسسة المطبوعات العربية بدمشق
ص . ب ٨١٢

N. Y. U. LIBRARIES

Near East
DS
225
.M8
c.1

الطبعة الأولى

دمشق : ٩ جمادى الآخرة ١٣٧٥
١٠ كانون الاول ١٩٥٩

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله على اني ما زلت منذ بضع وعشرين سنة أفكر في موضوع خطير كان يشغل ذهني ويثير تفكيري ، وانا لا ازال يومئذ طالبا في الجامعة ، وهو موضوع (الامة العربية ورسالتها) . ولا ازال احتفظ بمذكرات شخصية كتبتها ايام الدراسة في جامعة باريز اتساءل فيها عن رسالة الامة العربية ، وعن سر اختيار الله لها لاداء رسالة الاسلام .

وقد كتبت يومئذ في تلك المذكرات على هذا السؤال جوابا ، قلت فيه : ان الشعب العربي ، بظروفه الاجتماعية الخاصة ، أكثر الشعوب استعدادا لنشر افكار جديدة في العالم ، ولاعطاء التطور العالمي وجهة جديدة ما كان يمكن ان يتجه نحوها لو سلمت القيادة لشعب آخر . فان تركيب المجتمع العربي أكثر ملاءمة لأفكار الديمقراطية ، ومبادىء المساواة والكرامة الانسانية ، ذلك انه تجرد عما علق بالشعوب الاخرى من أفكار ارستقراطية منحرفة ، او اوهام وأساطير ...

ثم استمر تفكيري في هذا الموضوع وبحثي ، وأعانني على ذلك دافع داخلي ، تكوّن مما لقنني اياه أبي رحمه الله مذ كنت يافعاً ، من اننا هاجرنا من الحجاز فيمن هاجر من ابناء الحسن بن علي ، واقمنا في شتى انحاء المغرب ، الى ان استقر بنا المطاف في الجزائر ، ثم

غادرناها مع عدد كبير من سكانها بعد دخول الفرنسيين اليها عقب حرب دامت بضع عشرة سنة ، الى بلد العروبة والاسلام دمشق حيث استقر بنا المقام منذ قرن وربع . وطالما كنت اقلب صفحات الرسائل المتبادلة بين جدي ، ومن بقي من اسرته في الجزائر وبينه وبين أخيه الذي هاجر بعد ذلك الى اليمن ، وأتأمل فيما في تلك الرسائل من اخبار هجرتنا واجدادنا . لقد بقي كل ذلك كامنا في النفس ولكنه كان يدفعني من حيث اشعر او لا اشعر الى البحث والتفكير في كثير من الموضوعات دفعا شديدا ، ويحملني الوانا من العواطف والمشاعر .

وكان والدي رحمه الله الى ذلك راوية من رواة اللغة والأدب والتاريخ . وكان يتحدث عن العرب ، وينشد لشعرائهم ، ويروي قصص ابطالهم ، وينقل طريف اخبارهم ، لا ينقطع عن ذلك ولا يفتر طوال يومه . وكان السامع له يشعر من ثنايا حديثه ، ونبرات صوته ، واسارير وجهه ، بما في نفسه من حب لهذه البطولات واعجاب بتلك المفاخر والمكارم . فاذا انتقل الى ظهور الاسلام ، وسني الدعوة ـ وكان واسع الرواية في السيرة، يحفظ تفصيلاتها وجزئياتها، واخبار المغمورين والمشهورين من رجالها ـ وازن وقارن ،واشعرك بما فعل الاسلام في هذا الشعب العظيم من أثر عميق ، وما نقله اليه من افق رحيب ، وما حققته مبادىء الاسلام وروحه عن طريق هذه المكارم والمفاخر من انسانية رفيعة وسمو نفسي .

لقد امتزج ذلك كله في نفسي ، ووجهني في دراستي الى اهداف واضحة ، وانار لي السبيل ، وجنبني كثيرا مما وقع في نفوس كثيرين من امثالي من عقد ومشكلات ترجع الى تناقضات نفسية اورثتهم اياها بيئتهم .

وفي عام ١٩٤١ بعد عودتي من الدراسة في فرنسا ، عنيت ببحث التيارات الفكرية في سورية، والبلاد العربية، والقيت في هذا الموضوع محاضرات متسلسلة على بعض الاساتذة والطلاب الجامعيين ولم يكن قد نشر في ذلك الحين من الابحاث الا النزر اليسير . فبحثت التيارات الشعوبية منها ، وما وراءها من بواعث خفية ، وما ظهرت فيه من اشكال وصيغ ؛ والتيار الاصيل ، وما اعتراه أحيانا من انحراف ناشىء عن مؤثرات خارجية ، او جمود ناجم عما علق به من رواسب عصور الانحطاط في القرون الاخيرة من تاريخنا . وعنيت بوجه خاص بدراسة نشوء الفكرة العربية في العصر الحديث ، والمراحل التي مرت بها ، والعوامل التي أثرت في اتجاهاتها وصيَغها ، والمفاهيم المتعددة التي فهمت من خلالها ، وما كان من تلك العوامل داخليا اصيلا ، وما كان دخيلا عليها او خارجا عنها ، يتستر وراءها ويختفي تحت عنوانها . ولكن الظروف لم تعن على نشر تلك الابحاث التي بقيت راكدة في اوراقها ومصنفاتها ، ولكنها كانت دوما مرجعا ارجع اليه في كثير من المحاضرات التي القيتها في مناسبات شتى ، في النوادي ، وفي الاذاعة السورية ، وفي جامعة القاهرة ودمشق . وكنت اتابع البحث والتفكير في هذا الموضوع وما يتصل به ، لا تعوقني المشاغل الخارجية عن متابعته ، فتحصل لي من مجموع تلك الابحاث التي اختمرت في ذهني واعتلجت في نفسي ، بعد تجارب شخصية ومطالعات متنوعة ، نظرة شاملة واضحة الخطوط في موضوع القومية والانسانية بوجه عام ، وفي تحديد معالم الشخصية العربية وخصائصها وعناصر رسالتها بوجه خاص ، جاءت مبرأة من المفاهيم الاجنبية ، سليمة من الانحراف عن الجادة العربية القويمة ، ذلك الانحراف الذي وقع فيه كثير من دعاة

القومية العربية بتأثير الثقافة الاجنبية ، او الظروف الخاصة التي احاطت بهم ، او البيئة التي ينتمون اليها .

وقد رأيت ان ابدأ بتلخيص هذه المباحث ونشرها موجزة ، ريثما يتيح الله لي فرصة بسطها وتفصيلها . فجعلت القسم الأول من الكتاب محتويا على بحث نظري في القوميات ، وتطور البشرية من الوجهة الواقعية ، وفي الصلة بين القومية والانسانية . ثم اتبعت ذلك بتطبيق هذا البحث وطرح مسائله على الصعيد العربي ، واستعراض تطور الأمة العربية وظهور الوعي القومي فيها ، والمراحل التي مر بها ، والاشكال السياسية والقوالب الفكرية التي اتخذها ، مع نظرة نقدية تحليلية لهذه القوالب والاشكال . واما القسم الثاني من الكتاب ، فقد قدمته بما انتهى اليه بحثي في تحديد اتجاهات الامة العربية الاصيلة ، وعناصر رسالتها الخالدة . واتبعت ذلك ببعض ابحاث كتبت في الموضوع نفسه في تواريخ مختلفة .

وآمل ان يكون بحثي هذا قد جاء في موقعه المناسب من الاحداث العربية والعالمية ، في ظرف أخذت فيه الامة العربية تكمل طريقها في التحرر ، منتقلة من مرحلة التحرر السياسي الى مرحلة التحرر الاقتصادي والفكري ، ووجدت نفسها امام فراغ فكري يجب ان تملأه بمادة من ثقافتها وروحها واخلاقها ، لتسد الطريق نهائيا على الشعوبية المتربصة او المتخفية المقنعة . والامة العربية بموقعها بين القارات الثلاث من العالم ، وبموقع ثقافتها الانسانية بين العالم الغربي المادي ، سواء الرأسمالي والاشتراكي ، والعالم الشرقي الوثني والروحاني الخيالي ، وبموقعها القيادي من العالم الاسلامي تستطيع ان تقوم في العالم بدور المنقذ ،

وان تكون رائدة الحضارة الانسانيـــة المقبلة وطليعتهـــا ، وان تلقي لا بصواريخ اكتساح العالم المادي فحسب ، بل بقذائف القوة الاخلاقية البناءة للوصـــول الى قلب الانسان والى ساحة الانسانية السعيـــدة المتصلة بالله ..

دمشق ٢٤ جمادى الاولى ١٣٧٩
٢٥ تشرين الثاني ١٩٥٩

محمد المبارك
عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق

القسم الاول

ازمة الحضارة والأمة المنقذة

ان العالم حيث بلغ اليوم في مسيره ، والحضـارة حيث هي في طريقها في هذه المرحلة من التاريخ ، ينتظران الأمة التي تقوم بالدور البطولي في هذه العقدة من مسرحية التاريخ البشري . تلك الأمة التي لا تعمل بدافع الانانية والأثرة ، ولا طمعا في مكاسب تنالها لنفسها من ارض تضم لها ، او شعوب تحكمهم ، لتجعلهم مصرفا لبضاعتها وسوقا رخيصة لشراء موادها الاولية . ولكنهـا تعمل بدافع الاشفـاق على الانسانية ، ورغبة في مغانم عامة للبشرية ، وحبـا في تحقيق سعـادة البشر ، والاهداف المثالية والغايات الانسانية .

ان العالم ينتظر امة تقوم بدور البطل ، كما ينتظر شعب يتمخض بالازمات ، ويشتد فيه الوعي والحركة والغليان ، بطلا قائدا تتجمع فيه رغبات شعب واهداف امة وٴمثلها . فالعالم اليوم في ازمات آخذ بعضها برقاب بعض لا يجد لها حلا . وكلما وجد حلا ظن فيه الخلاص انتهى به الى ازمة جديدة أو ازمات .

ان الحضارة الحديثة التي تكونت في الاصل من عنصر الثقافة اليونانية الرومانية ، بما فيها من فلسفة عقلية ، ووثنية دينية ، وانسانية مغلقة ؛ ومن عنصر المسيحية بعد أن غشيت روحانيتها المثالية غواش من المادية القديمة ، ومن النفوس الاوربية التي لم تتفتح انسانيتها ، ومن الجانب المادي من الحضارة الاسلامية التي حملهـا العرب الى الاندلس مفصولا عن الجانب العقيدي والخلقي من هـذه الحضارة . لقد انتهى الامر بهذه الحضارة الى تقـدم عقلي رائع مستمر في افق

الحياة المادية ، وصناعة آلية كبرى ، ومستوى مرتفع للحياة المادية ومطاليبها ، وثورات شعبية سياسية اطاحت بالنظم الفردية المطلقة . وانتهت كذلك الى مادية أو ريبيّة في فلسفة الوجود والاعتقاد ، والى مادية في اهداف الانسان وقواعد سلوكه وانكار لجميع القيم الخلقية الموروثة ، وضعف يشبه الموت للعواطف الانسانية ، وإلى نظم للحكم وللمجتمع لا تقيم وزنا الا لتحقيق الاهداف المادية ، من كثرة الانتاج ، وتحسين مستوى العيش المادي على اسس جائرة او عادلة لافراد الشعب ، والى استعمار امم لاخرى تستولي على ارضها ، وتتحكم في امرها ، وتتصرف في اموالها .

ان هذه الحضارة المعاصرة ، سواء ظهرت في شكل شعوب منظمة ، أو في شكل مذاهب فلسفية أو سياسية ، أو في انظمة للحكم ، ليست الا تعبيرا عن خصائص هذه المرحلة واتجاهاتها المادية وليست الازمات المستمرة المستحكمة سواء في المجال الدولي او الاقتصادي أو الاخلاقي الا نذرا تنبىء عن نقص هذه الحضارة او فسادها او انتهاء دورتها .

ان العالم ينتظر نظاما جديدا للحياة ، ويتشوق لمثل عليا غير المثل الخادعة التي كان يسير نحو خيالها الكاذب .

ولكن المثل العليا الانسانية لابد لها من يد تحملها ، ومستقر مادي تنهض منه ، وقاعدة بشرية تستند اليها . ان المثل العليا من أي نوع كانت لم تقم بذاتها في التاريخ ، ولم تتحقق الا عن طريق شعب حملها ونشرها ونفذها . وان تاريخها مرتبط دوما بشعوب واقوام تبنتها وتحمست في سبيلها ، وجاهدت لتحقيقها ، وكان بينها وبينها تجاوب وتوافق ، بل مواعدة والتقاء .

لا بد من شعب معين ، تعينه ظروفه ويساعده استعداده لحمل راية الحضارة في مرحلة معينة من مراحل التاريخ . لا يكفي لحل أزمة الانسانية ان نفتش عن المثل الاعلى الذي تحتاج اليه ، وعن العناصر الناقصة في تركيب حضارتها ليتمها ، لا يكفي أن تتصور **الوظيفة** ، بل لا بد من التفتيش عن **العضو** الذي يقوم بها .

ما اكثر ماكان الناس في كل عصر على ادراك لما يجب ان يكون ، وللقاعدة الواجبة التطبيق ، ولكنهم ينتظرون القائد البطل والرائد القدوة الذي يتمثل فيه معنى هذا الواجب ، ويتحقق في ذهنه ونفسه وعزيمته المثل الاعلى المنشود ، وكذلك الحال في أمر الشعوب والامم .

واني اعتقد بعد تفكر طويل أن **العرب** هم الامة المرتقبة للقيام بهذا الدور العالمي ، وان **الحضارة الانسانية المثالية** المرتقبة تنبثق من حضارتهم ، وتستمد عناصرها من تراثهم ، وان بيدهم نتيجة ذلك مفتاح حل الازمة العالمية، وانهم **الطليعة** المنتظرة ، **والرائد** المرتقب ، وبناة المستقبل الانساني . وذلك لاسباب مادية ومعنوية كثيرة . وابرزها :

١ ـ موقع العرب من العالم

أ ـ الموقع المادي او الجغرافي

ان موقع بلاد العرب بين قارات العالم الثلاثة ، واتصالها عن طريق البر والبحر بمختلف اقوامه وحضاراته ، يعين الامة العربية على القيام بهذا الدور الحضاري الفعال ، فيجعلها قادرة على فهم الاقوام والشعوب، وعلى الاتصال بهم بسهولة ، مع وجود حيّز من الارض خاص بها تحيطه

من جوانبه الصحاري والبحار • وللبلاد العربية الممتدة بين القارات ، في اراضي قارتين منها مزايا خاصة ، في التنوع والتكامل وسعة الامتداد وكثرة المنافذ المشرفة •

اضف الى هذه العوامل الطبيعية ، مزية الانسجام والوحدة الطبيعية القائمة بين سكان البلاد العربية •

ب ـ الموقع المعنوي او الحضاري

ولئن كان موقع الارض العربية موقعا ممتازا مساعدا بالنسبة الى العالم ، فان موقع الحضارة التي حملها العرب والتراث الذي تناقلوه جيلا بعد جيل ، والمبادىء والافكار التي دانوا بها ، تقع بين حضارات العالم كذلك في موقع ممتاز •

ذلك أن الامة العربية تقع اولا من الوجهة الحضارية موقع المركز الاشعاعي والنواة من العالم الاسلامي • فهي التي تمده بثقافتها ، ومن معين لغتها ينهل قادته ومثقفوه • وهي المرجع الاخير لتصحيح الانحراف ، وتقويم الاعوجاج • والفهم العربي هو الضابط في فهم هذه الحضارة التي شعت من بلاد العرب ومن كتاب الله الذي نزل بلغتهم •

وتقع حضارة العرب التي انبثقت من الاسلام ، في موقع متوسط متزن بين حضارتين ، **أولاهما** حضارة الغرب المادية التي قدمت عن الانسان صورة بتراء لا تقع الا على الجانب المادي منه ، ورسمت له كذلك منهاجا ابتر ، ونظاما ناقصا ، فجفت ينابيع الحياة الروحية فيها ولا سيما بعد ان ضعف تأثير المسيحية ، وتغيرت من عهد بعيد في ارض الغرب معالمها الحقيقية وروحها • **وثانيتهما** ، حضارة

الشرق الذي كانت تغمره روحية خيالية لا جذور لهـا في الارض ، وهي روحية غير قابلة للحياة، كتلك التي كانت تعيش في الهند والصين ، ولم تستطع ان تقدم الى الحضارة العالمية عنصرا يمكن ان تستفيد منه، لانها كذلك تعطي صورة عن الانسان بتراء ناقصـة تهمل الجـانب المادي منه .

ان الحضارة التي شعت من بلاد العرب والتي تجـاور الحضارتين غربا وشرقا ، هي وحدها الحضارة الجامعة الكاملة التي لم تهمل جانبا من جوانب الانسان ، ولم تقدم نموذجا للانسانية ونظاما لسيرها يغبن فيه احد الاعتبارين المادي او الروحي . فلقد جمعت بينهما في وحدة كوحدة الحياة نفسها كما خلقها الله ، فجاءت جميع مفاهيمها ونظمهـا وما اقيم على اساسها من مجتمعات مكتملة العناصر تمشي على ساقين لاعرجاء على ساق واحدة .

٢ ـ وحدة الامة العربية وانسجام اجزائها

اضف الى ذلك ما يمتاز به الشعب العربي من أكثر شعوب الارض ، من اتصال اجزائه وسكانه في وحدة حقيقيـة متصلة ، منسجمـة في الافكار الاساسية في الحياة ، وفي المبادىء والمشاعر . وذلك مما يساعده على حسن الاستفادة من موقعه العالمي الجغرافي والحضاري .

ذلك ان البلاد التي يسكنها اليوم ابناء الامة العربية قد تم تعريبها ، في هذه الدائرة الواسعة التي تصـل الى شواطىء المحيط الاطلسي وحدود ايران وشمالي الشام والبحر العربي في الفتـوحات الاولى التي خرج بها العرب يحملون رسالة الانسانية الى العالم .

وتعممت في هذه الدائرة العربية عقائد ومبادىء لم تكن غريبـة

عنها ، فقد سبقتها عقائد دينية من نوعهـا . فجاءت رسالـة الاسلام مؤكدة ومكملة رسالات الديانات السماوية السابقة التي كانت منتشرة في هذه الرقعة من الارض . وبذلك تكون قـد خرجت من جزيرة العرب موجتان : احداهما بشرية ، أمدت البلاد المتاخمـة في الشام والعراق ومصر والمغرب بعدد وفير من ابناء العربية ، هاجروا اليها قبل الاسلام قليلا وبعد الاسلام بكثرة وفيرة ، فاندمجوا بأهلها وانصهر الجميع في بوتقة واحدة ، وعمت العروبة هذه البلاد كلها . واما الموجة الثانية ، فهي موجة ثقافية فكرية . فقد نشر العرب لغتهم ، والعقـائد والمبادىء التي دانوا بها ، نشروها في تلك البلاد ، فاصبحت اساس ثقافتهم وحياتهم الاجتماعية . وتمت بذلك عملية التوحيـد الفكري والثقافي . ولم يكن ما تبقى من الديانات الكتابية في هـذه البلاد لتتجافى او تتنافر مع هذه الموجة الاسلامية في العقيدة والثقافة لتلاقي الأصول وتشابه المباديء .

لقد تمت بين سكان البلاد العربية عوامل الوحدة والانسجام بشكل لم يتم لاكثر بلاد العالم ، اذ لم تقتصر هـذه الوحدة وذاك الترابط والانسجام على ناحية اللغة أو الاصل والجنس أو الثقافة أو المعتقدات ، بل اجتمع ذلك كله ، وتظاهرت هذه العوامل كلهـا لتكوين المجتمع العربي ، وجعله وحدة اجتماعية حية خصبة منتجة فعالة .

٣ ـ استعداد العرب وتجربتهم التاريخية وسابقتهم

وهي اسباب اساسية جداً تضاف الى ما سبق من الاسبـاب التي ترشح العرب للدور العالمي المنتظر ، وسنوضحها فيما سيأتي من مباحث الكتاب . ان ما فطر الله عليه العرب من فطرة طيبـة ، يجعلهم احسن

الناس استعدادا للجمع بين الوسائل المادية والاهداف الخلقية الكريمة. وهم معروفون بطبعهم بانهم لا يجعلون المادة من المال او القوة غاية الحياة ومقياس الخير ، ولا ينصرفون الى الخيال والاساطير والروحانية السلبية عن جادة الحياة وفطرتها السليمة وسننها الطبيعية ، بينما عرفت شعوب اخرى بالتردي في الماديات في شتى الوانها واشكالها . أو بالغوص في الخيالات والعزوف عن الفطرة في روحية انعزالية . ولعل هذا هو السر في هذا التلاقي بين رسالة الاسلام والامة العربية ، والتجاوب بينها وبين مبادئه الجامعة في نظام رائع بين مادية الحياة من ناحية الوسائل ، واخلاقيتها من حيث الاهداف ، وإلهيتها من حيث المصدر .

وللعرب في تاريخ الحضارة سابقة وأي سابقة ، فقد قادوا العالم تحت ظل الاسلام الى اشرف الغايات وانبل الاهداف ، والى آفاق جديدة واسعة في معرفة الكون والطبيعة . واستطاعوا ان يجمعوا في نظام بديع بين الشعوب والامم في حضارة انسانية رائعة .

تلك هي بعض الاسباب الكبرى التي تجعلنا نعتقد ان العرب مؤهلون للقيام في العالم الحديث بدور الانقاذ للحضارة الانسانية الآخذة في انهيار مستمر من وجهة الغايات والاهداف . ولكن هذا الدور الضخم في تاريخ العالم وتاريخهم يتوقف على وعيهم **لذاتهم** ، ووعيهم **لرسالتهم ودورهم** ، بعد عملية جذرية عنيفة **للتحرر** من رواسب عصور الانحطاط من جهة ومن النفوذ الاجنبي المتجلي في **الاستعمار** وفي مفاهيم ومذاهب اجنبية فاسدة من جهة اخرى ، وتدارك جميع نواحي التخلف عن مجالات الرقي المادي الذي بلغته

الحضارة في هذا الميدان للوقوف في رأس الطريق في مسير الحضارة، دون الاخذ بما يقترن بذلك الرقي من مذاهب فكرية واعتقادية واخلاقية ليست هي من مستلزماته .

ان هذا التحرر والوعي يقتضيان كشف الالتبـاس عن كثير من المفاهيم الخاطئة ، وانارة المفاهيم الغامضة ، وتجلية المفاهيم الصحيحة ، لتسريع حركة الوعي المستيقظ ، وكشف الستار عن مداخل الحركات الشعوبية التي تأخذ الوانا مختلفة ، وعن مفاهيمها المنقولة ، وشعاراتها المستوردة . ومن اجل هذه الغاية كتبنا هذا الكتاب ونسقنا ابحاثـه واجزاءه .

بين القوميّة والانسانيّة

ان البشرية في واقعها كانت ولا تزال تتكون من مجموع وحدات قومية لا من مجموع افراد . ولكل وحدة قومية موقع من الارض وتاريخ ، اورثاها خصائص ومزايا عرفت بها ، وظهرت في ميادين حياتها ، أوجدت فيما بين افرادها ارتباطا نشأ عن هذا الاشتراك في الارض والاصل والتاريخ وفي الصفات والمزايا بوجه الاجمال . وهذا الارتباط بين افراد الجماعة القومية الواحدة فطري طبيعي ، وهو من نوع ارتباط افراد الاسرة فيما بينهم ، وبارتباط افراد القبيلة أو العشيرة ولكن في نطاق اوسع . وهونوع من التعبير عن **غريزة حفظ الذات الجماعية** . وليس الشعور القومي الا تعبيرا عن هذه الغريزة ، وهو اشبه بالشعور الاناني بالنسبة الى الفرد ضمن الحد الذي يكون دفاعا عن النفس وحفظا للذات الفردية .

وانما تتفاوت الاقوام أو الجماعات القومية في خصائصها ومزاياها بسبب اختلاف الاصل ، وظروف الحياة في رقعة خاصة من الارض ، واختلاف حوادث التاريخ . فهي تتفاوت في طبائعها وامزجتها وفي نفسيتها وعقليتها وفي ميولها واتجاهاتها . وهذا الاختلاف نعمة وليس بنقمة . ذلك انه يؤدي الى ان يكمل بعضهم بعضا حين تتلاقى وتتعاون . وذلك كاختلاف الافراد المؤدي الى تعاونهم عن طريق اكمال بعضهم خصائص بعض . فعلى التفاوت يبنى توزع الوظائف ، وبتوزع الوظائف يتم التعاون على تحقيق مالا يتحقق في حال الانفراد .

ان الاقوام والشعوب ليست في الحقيقة متساوية في مزاياها

واستعداداتها وخصائصها . وهذا لا يمنع تساويها من حيث القيمة المعنوية وفي الكرامة الانسانية ، ولكنها مختلفة في مواهبها ، في ذكائها وطريقة فهمها ، في ميولها العملية والفكرية والفنية ، في فعاليتها وحبها للجهد والعمل او ميلها الى الراحة والكسل ، في نفسيتها وامزجتها وانفعالاتها . عرف اجدادنا هذا فوصفوا الأمم كما وصفوا انفسهم بصفات متباينة . وشأن الامم في ذلك شأن الافراد في اختلاف ميولهم ومواهبهم ، وان كنا نعتبرهم اخلاقيا وحقوقيا متساوين . ولذلك كانت مساهمة الامم والشعوب في الحضارة مختلفة ، وقدرتهم على تمثل المبادىء الانسانية ، او على الابداع الفني او النبوغ العلمي متفاوتة كذلك . وهذا لا ينافي ان هذه الشعوب يطرأ عليها المرض والصحة والقوة والضعف والجهل والعلم .

ان هذه **الخصائص المميزة** لكل أمة يجب مراعاتها واعتبارها في تطور تلك الامة وفي مناهج حياتها ونظم تشريعها . ولكن يجب من جهة اخرى عدم اهمال **الخصائص الانسانية العامة** بل ينبغي كذلك العناية بها وتنميتها ، اذ بذلك تلتقي الشعوب والامم في نقاط مشتركة. إن اهمال الخصائص المميزة اضاعة للذاتية ، واضاعة للجهود البشرية ، واقتلاع للجذور التي تصلنا بالبيئة التي نعيش فيها ، كما أن الاعتماد عليها وحدها ، وتخصيص الفروق القائمة بين الامم بالاعتبار ، واغفال الخصائص المشتركة بينها ، تقوية للعصبيات العرقية ، ووقوف دون نمو الروابط الانسانية ، وتعويق للتطور نحو حضارة انسانية متعاونة مثلى .

وان البشرية كما انها لم تقف في حركتها وتطورها خلال العصور

عند حدود الانانية الفردية بل تجاوزتها ـ بعد ان حددتها بحدودها المؤدية الى البقاء وحفظ الذات ـ الى مرحلة الشعور الجماعي في حدود الاسرة ، ثم القبيلة ثم القوم ، كذلك لم تقف الجماعة القومية عند حدود الانانية القومية ، والشعور الذاتي للجماعة ، بل تجاوزتها بدافع طبيعي ايضا الى مرحلة الشعور الانساني والروابط الانسانية المشتركة ، سواء من الناحية الاقتصادية أو الفكرية أو الاعتقادية أو الاخلاقية .

ان في الانسان فردا وجماعة الى جانب غريزة حفظ الذات وحب الذات ، غريزة حب الانطلاق من الذات الى خارجها . واذا كانت الغريزة الاولى تصور الانسان في حالته الراكدة ، فان الغريزة الثانية تصور الانسان في حركته او حياته المتطورة وفي تطوره التقدمي المستمر .

ولهذه النزعة نحو الانسانية تعبيرات كثيرة في مجال الفكر والاخلاق والاديان. ولهذا كانت التيارات العالمية، والروابط الانسانية، سواء ظهرت في شكل مذاهب سياسية ، أو عقائد دينية ، أو آراء علمية ، او عادات اجتماعية ، ملبية لحاجة طبيعية ، وموافقة لفطرة اصيلة ، بل انها آخذة في النمو كلما تقدمت البشرية . واننا لنجد ان **الصعيد المشترك** الذي تلتقي فيه الشعوب والاقوام آخذ في التزايد يوما بعد يوم . ولو أنك اليوم زرت جامعة او مدرسة في عدة بلاد مختلفة في الشرق او الغرب ، أو قرأت مجلة او صحيفة ، او حللت في فندق ، او حضرت جلسة نيابية ، او زرت مصنعا ، لوجدت تشابها عظيما في مختلف هذه الميادين . لذلك أصبحت القوميات المغلقة على

نفسها من مخلفات التاريخ ومن مظاهر التأخر ، وأصبح الاقتصار على الشعور الذاتي في كل جماعة قومية جمودا ونكولا عن السير في طريق التقدم البشري والتكامل الانساني والتعاون بين الشعوب في شتى الميادين .

ومن هنا كان اثر الاديان التي انتشرت بين شعوب كثيرة في الأرض كالمسيحية والاسلام في تقوية هذه الروابط الانسانية والانسجام مع هذا التيار الطبيعي نحو التعاون الانساني . ولهذا السبب نفسه وجدت بعض المذاهب الفلسفية والسياسية ، كالشيوعية على ما فيها من مفاهيم باطلة ، مدخلا طبيعيا الى نفوس البشر حين استفادت من ميل البشر الى فكرة انسانية جامعة .

ان الشعور القومي ، والشعور الانساني ، وكلاهما طبيعي من اصل الفطرة قد يقعان في بعض الظروف ولدى بعض الامم في موقف التعارض والتصارع . وهذه الحالة في نظرنا حالة مَرَضية ، ولكن الحالة الطبيعية المثلى هي في توافق الشعورين وانسجامهما وسيرهما في اتجاه واحد لا في اتجاهين متعارضين ، شأنهما في ذلك شأن التوافق بين الشعور الفردي والشعور الاجتماعي في الانسان . وذلك مايتحقق لدى بعض الامم في بعض ظروف التاريخ ، فينتج اروع آثار الحضارة ويفيد الانسانية اعظم الفوائد .

ان القول بحصر الانسان في الاطار القومي وحده ، واعتبار حدوده هي الحدود القصوى التي يتطلع اليها الانسان ، وقلب واقع البشرية ووجودها القائم الى مثل اعلى واجب الاتباع ، هو اغفال لاروع ما في قصة الانسان من صفحات الحضارة وما في نفسه من التطلع البعيد الى

آفاق الانسانية ، وتغاض عن التيارات التي اجتاحت وما زالت تجتاح بموجاتها العالمية القوميات جميعا ، كالمسيحية والاسلام وغيرها ايضا من مكتسبات الانسانية ، كافكار الحرية والمساواة والاشتراكية .

ان القوميات لم تستطع مطلقا ان تغلق الابواب على نفسها ، وتسد المنافذ على تحفز الانسان نحو الافق الانساني ؛ كما لم تستطع التيارات العالمية العامة سواء كانت اديانا أم كانت مذاهب فلسفية ، ان تقضي على القوميات ، او تمحو هذا التقسيم الذي قسم الله البشر على اساسه اذ جعلهم شعوبا وقبائل منتسبين الى أسر وأقـوام . وكل ما استطاعت ان تفعله في أقوى عهودها هو أنها خففت من غلواء العصبية القومية وتجاوزها على مبادىء الحق والعدل ، وذلك في ازمنة محدودة وعند فريق من الناس .

ولكن تقدم الانسان وتطوره الحضاري لم يكن دوما انسياقا مع الواقع وانطلاقا مع الغرائز ، بل كان في أكثر الاحيان ، ان لم نقل دائما نتيجة ثورة على الواقع وصراع مع الغرائز .

فالانانية والغريزة الجنسية من خصائص الانسان وواقعه ، وقتلهما قتل لخصائص الانسان . ولكن ترك الحبل لهما واطلاقهما بلا قيد يعود على الانسان نفسه بالضرر والخسران ، ولذلك كانت المبادىء الاخلاقية تدعو الى كبح غلوائهما والسمو الى الايثـار وحب الغير ، وتقييـد الغريزة الجنسية بقواعد اجتماعية وقانونية . وكذلك جاءت المبادىء الانسانية العامة تربط بين البشر جميعا برباط روحي يدل على وحدة المصدر والمصير ، او برباط خلقي يجعلهم متساوين في كرامتهم تطبق عليهم قواعد متماثلة في العـدالة ، أو برباط قانوني أو غير ذلك من

الروابط التي تمثلت في الاديان الكبرى الشاملة ، او في المذاهب الاجتماعية العالمية ، جاءت هذه المبادىء الانسانية العامة تمثل سمو الانسان وتقدمه ، معدلة للواقع ، مانعة من ان يهضم الحق وتداس الفضيلة بدافع من الغلو في حب الجماعة التي ينتمي اليها الانسان ، غلوا يصل به الى احتقار الجماعات البشرية الاخرى واستحلال الاعتداء عليها وسلب أموالها وسوء معاملتها .

على أن هذه التيارات العالمية ، والموجات الانسانية التقدمية ، انما كان الحامل لفكرتها والداعي اليها والمنفذ لها في واقع التاريخ البشري جماعة بعينها وامة من الامم ، ولم يقع ان يتفق افراد متفرقون من امم شتى على نشر مذهب انساني ويتمكنوا من نشره في العالم ، اذ لابد من وحدة بشرية حية سبق وجود تجانس وانسجام بينها لتحمل الفكرة وتحققها وتناضل في سبيلها . ومن هنا كان تباري الامم وتفاضل الشعوب فيما قدموا للبشرية من افكار انسانية ، وما وسعوا من الصعيد المشترك بين الشعوب ، وما حققوا من تعاون الاقوام واتمام بعضهم لخصائص بعض . ولهذا اقترنت كل فكرة انسانية وكل رسالة عالمية باسم شعب من شعوب الارض قديما وحديثا ، ولو انها انتقلت فيما بعد الى غيرهم . فلا يذكر الاسلام كمبادىء انسانية ونظام عالمي عام ، الا ذكرت الامة العربية ، حتى امتزج تاريخه كرسالة وحضارة ودين بالعرب كشعب وامة ، وبالعربية كلغة ، مع أن الاسلام عمّ شعوبا وأمما كثيرة في الارض . وكذلك في العصر الحديث اقترنت الشيوعية كفكرة عالمية بالشعب الروسي والامة الروسية مع انها انتشرت في دائرة اوسع من هذا الشعب بعينه .

ان تطور البشرية يتم على أساس نمو الوحدات البشريـة الحية المنسجمة التي هي القوميات نمواً ذاتياً من جهة ، ونموا على اساس الالتقاء فيما بينها وتوسيع الصعيد المشترك من جهة اخرى ؛ وذلك عن طريق مايخترقهـا من تيارات انسانية فكرية واعتقاديـة واخلاقية واقتصادية ، وما تصل اليه من مراحل متشابهة بسبب وحدة الجنس البشري وتشابه مراحل تطوره . وكل نظرية تبنى على غير هذه الصورة الكاملة للبشرية او هذه المسلمات الواقعية فهي نظرية خاطئة . وكل مذهب عقائدي فلسفيا اخلاقيا كان ام سياسيا لايستند الى هذه الاسس فهو مذهب أبتر مآله الاخفاق .

ملاحظات هامة حول تكوين الأمة

انالعوامل التي تكوّن الامم هي نفسها في تحول وتطور ، وهذا ما اغفله اكثر علماء الاجتماع الذين بحثوا هذا الموضوع ، فقد ذكروا الارض والعرق واللغة والدين والثقافة والتاريخ والمنفعة المشتركة . وهذه العوامل ليست مختلفة في نصيبها من التأثير في تكوين الامة فحسب ، ولكنها نفسها تتفاوت في قوة تأثيرها بحسب الزمن والطور الحضاري الذي تمر الامة به . فقد كانت الارض بموقعها ومناخها وجوها وطراز الحياة فيها ، ذات اثر كبير في الحياة الابتدائية الاولى ، حين كانت المواصلات قليلة ، وسلطان الانسان على الطبيعة ضعيفا . وكذلك كان للعرق البشري الذي تكون في تلك الارض بخصائصه المادية والمعنوية اثره في حياة الامة . ولكن اثر هذين العاملين الماديين آخذ بالضعف والنقصان كلما ارتقت الامم واتصل بعضها ببعض وكثرت الاتصالات المادية والمعنوية . والتطور البشري آخذ في اتجاه يقوى فيه بازدياد مستمر اثر العوامل المعنوية كالثقافة والمعتقدات والافكار ، وما ينبثق عنها من انظمة اجتماعية وسياسية وعادات . وعلى هذا فالمناقشة التي يناقش بها علماء الاجتماع هذا الموضوع والتي قوامها المفاضلة والمقابلة بين هذه العوامل خاطئة من اساسها لانها مبنية على نظرة يركد فيها الزمن **ستاتيك** ، لا على نظرة حركية زمنية **ديناميك** .

لقد كان الانتساب الى الارض والعرق هو الرابطة الاساسية بين افراد شعب او قبيلة . ثم تطورت هذه الرابطة تطورا تدريجيا فاصبحت الرابطة بين افراد امة من الامم هي رابطة الانتماء الى ثقافة واحدة ومعتقدات واحدة ، سواء اكانت هذه المعتقدات دينية في صبغتها ام اجتماعية . وبذلك تطور مفهوم **الامة** وتطور واقع الامم نفسه . فبعد ان كانت الامة تتألف بالدرجة الاولى من المنتمين الى اصل واحد أصبحت تتألف من المنتمين الى مفاهيم واحدة أو متشابهة في الحياة وان كانوا غالبا بالاضافة الى ذلك منتمين الى اصل نسبي او عرق غالب . ومن احدث اشكال الامم التي يجمع بينها نظام الحياة ومفاهيمها وفلسفتها ، الاتحاد السوفيتي ، وامريكا . فكل منهما مجموعة بشرية كبيرة تتكون من قوميات مختلفة ، يجمع بينها الفلسفة الشيوعية والنظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ، والفلسفة الديمقراطية والنظام الديمقراطي بمعناه المعروف في البلاد الغربيةوفي الدول الامريكية المتحدة . ومع ذلك فقديكون للعوامل القومية فيداخل هذين المجتمعين السوفيتي والامريكي اثر قوي يختفي وراء مظاهر من الافكار والمبادىء والتيارات والتصرفات العامة والتطورات السياسية ، الى جانب الاثر التوحيدي الناجم عن العقائد والمفاهيم المشتركة .

من هنا يبدو لنا ان مفهوم الامة في تطور . وذلك لان تكوين الامم نفسها في تطور مستمر يتجاوز تفكيرنا الموروث الجامد عن الامة ، فهي في طور انتقال من التكوين العضوي **البيولوجي** الى التكوين العقائدي **الايديولوجي** .

مفاهيم القوميّة

١) القومية حقيقة قائمة وواقع

ان مما لا يمكن انكاره ، كما تبين مما سبق ، أن القوميات حقيقة واقعة ووجود قائم ، له أثره في حياة البشر في الماضي والحاضر ، ولذلك وجب أن يؤخذ بعين الاعتبار في النظر الى الحياة الانسانية وفيما يقام فيها من انظمة ومذاهب . فالجماعات القومية هي القاعدة الارضية التي تقام عليها وتنفذ بواسطتها وتنتشر منها . وانتماء الانسان الى قوم بعينه وتحدثه بلغتهم وتطبعه بعاداتهم وشعوره بالارتباط بهم وبارضهم جزء من صفات الانسان الواقعية التي كانت ولا تزال . فالناس مذ كانوا حتى يومنا هذا منقسمون الى اقوام وشعوب ، عرب وهنود وصين واتراك وصقالبة وفرنسيون والمان واسبانيون ... وان انتماء الانسان الى شعب من هذه الشعوب له اثره الخاص في حياته وتصرفاته ، وان عاطفة الانسان نحو بني قومه التي تبلغ احيانا حد العصبية لم تمح قط من الوجود . ولكن الاديان والمذاهب الاخلاقية حاولت ايجاد روابط انسانية عامة تخفف من هذه العصبية التي قد تبلغ حد الافراط والغلو وتجاوز الحق ، ولكنها لم تمحها من الوجود .

فلا يزال الناس منقسمين الى جماعات وشعوب تسكن من الارض بقاعا مختلفة ، ولها لغات متنوعة وعادات وفنون وآداب مختلفة . بل ان عملية اختمار القوميات وتكون قوميات جديدة من قبائل كانت مشتتة ، أو من مجموعات كانت متفرقة في دول سياسية متعددة لايزال يجري حتى الآن ؛ كما تجري عملية معاكسة أحيانا ، وهي انضواء

قوميات متعددة تحت لواء فكرة أو مذهب واحد كامريكا والاتحاد السوفيتي والصين ، وكلها في الحقيقة مؤلفة من قوميات أو من عناصر قومية متعددة .

فالقومية كواقع حقيقة قائمة في البشرية لها أثرها في حياتهم الفكرية والسياسية والفنية .

٢) القومية باعتبارها نظرية اجتماعية علمية

ومن علماء الاجتماع من يتخذون من القومية نظرية علمية يعلل بها الحياة البشرية وتطورها وتاريخها وحضاراتها . فيدعون ان لصفات الاجناس والعروق وخصائصهم وصفاتهم الاثر الاكبر في تكوين الدول ، وابداع الحضارات ، وان كل جنس من البشر او شعب من الشعوب يبدع نوعا خاصا من الحضارة تظهر فيها مواهبه ونواحي عبقريته . ويعللون كذلك الحروب بالصراع بين القوميات ، ويرون في المبادىء والمذاهب والاديان كذلك مظهراً من مظاهر خصائص الشعوب وعبقرياتها . ونعتقد ان هذا الاتجاه لاتقره نظريات علم الاجتماع الحديثة ، ولا البحث العلمي ، وكل ما يمكن قبوله من هذه النظرية هو ان انقسام البشرية الى قوميات والانتماء الى احدى هذه القوميات عامل من جملة العوامل الكثيرة المعقدة التي تؤثر في مجرى الحياة الانسانية ، ولكنه ليس العامل الوحيد . ثم ان هذا العامل نفسه نتيجة لعوامل تختفي وراءه ، كالبيئة الطبيعية ، والحوادث التاريخية ، والافكار والمذاهب ، والمراحل الحضارية التي تمر بها الامم وغيرها .

لا نستطيع ان نقول مثلا ان التقدم العلمي والاكتشافات الحديثة في ميادين الطبيعة هي نتيجة مباشرة لفعالية قومية معينة ، او مظهر من

مظاهر عبقريتها . ولا يمكن ان نزعم أن اليهودية والمسيحية والاسلام هي مظهر للعبقرية الساميّة ، وأن الاسلام هو من عمل العبقرية العربية. بل لا يمكن انزعم مثل هذا الزعم حتى للمذاهب الفلسفية والاجتماعية. ان هذا نوع من الافتراض الذي لا يمكن للبحث العلمي الموضوعي ان يقبله أو أن يأتي عليه ببراهين مقبولة علميـا ، وان كنا نستطيـع ان نقول من جهة أخرى ان الاديان التي هي من وحي السماء ومن مصدر إلهي كالنصرانية والاسلام ، والمذاهب الفلسفية والاجتماعية ذات الصفة الانسانية العامة والتي هي من صنع الانسان وتفكيره كالديمقراطية والشيوعية ، ان هذه وتلك ، مع صفتها العـامة واطارها العالمي ، تتفاعل مع كل شعب أو قومية بكيفية خاصة ، وتأخذ اشكالا متنوعة ، على مابين هذه الاشكال من عناصر عامة مشتركة . فالديمقراطية كما فهمت وطبقت في انكلترا غيرها في فرنسا او في امريكا او في ايطاليـا . والشيوعية كما فهمت وطبقت في روسيا غيرهـا في يوغوسلافيا أو الصين . والاسلام كما فهمه العرب وطبقوه تبدلت ملامحه وطرائق تطبيقه عند الفرس والاتراك ، فشاب توحيده الصافي أنواع من الشوائب وتحولت مرونته التي تجلت في الاجتهاد في عهد الصحابة والتابعين الى جمود نصوصي واغلاق لباب الاجتهاد ، وتبدلت نظرة الناس الى أميرهم على انه واحد منهم ، الى نظرة طبقية ارستقراطية . هذا مع ان الاسلام ثابت الاصول في القرآن والسنة ، واضح المعالم والتاريخ ، عالمي الرسالة والمبادىء ، إلهي المصدر .

القومية مذهب سياسي

ومن المفكرين والسياسيين في كثير من الامم من يرون في القومية مذهباً سياسياً ، قوامه جمع ابناء القومية الواحدة على اختلاف احوالهم

وأديانهم في وحدة جامعة وفي ظل دولة مستقلة ذات سيادة ، والاعتماد في ذلك على الفطرة الطبيعية التي تربط بين افراد الشعب الواحد ، الذين يتكلمون لغة واحدة ، ويعيشون في ارض واحدة ، ولهم عادات متشابهة وثقافة مشتركة ان هذا النوع من التكتل والتجمع طبيعي في حياة البشر وتاريخ البشرية ، وكلما عرضت ظروف عاقت هذا الوضع الطبيعي وبدلته ظهرت دوافع نفسية وتيارات اجتماعية لارجاعه الى أصله . ولذلك فان الامم التي قسم شعبها وأرضها لسبب من الاسباب ، أو احتلت وغلبت على امرها ، لا بد ان يدفعها دافع طبيعي للوحدة والتحرر والاستقلال . وفي حال يقظتها وسريان الوعي بين افرادها ونمو شعور الكرامة والسيادة وروح الاستقلال في نفوسهم ، يقوى هذا الدافع ويبرز في شكل تيارات شعبية وأحزاب سياسية ونهضات أدبية وثورات نضالية ، ويبرز من صفوف هذه الامة ومن مناضليها قادة يوجهون النهضة ويقودون الجموع ، سواء أكانوا قادة سياسيين أو فكريين أو أدباء ، يعبرون عن عواطف الشعب وأفكاره وأهدافه ، أو يدفعونه الى مراحل جديدة ويبعثون في نفسه العواطف الكامنة ويشعلون المشاعر الخامدة .

وفرق كبير بين هذا المفهوم السياسي للقومية والمفهوم العقائدي السابق ، فلا يرد على هذا المفهوم ما يرد على ذاك من اعتراضات علمية ، ولا ينتج عنه ما ينتج عن ذاك من النتائج التي قد تتعارض مع الاخلاق أو الاديان . وهو يحقق الاهداف نفسها التي يسعى من أجلها أصحاب المفهوم العقائدي دون ان يتخذ منها ومن مفهوم الامة أصناماً جديدة ، أو أن يخلق وثنية حديثة .

وقد يستعمل أصحاب هذا المفهوم السياسي تعابير المفهوم العقائدي، توسعا

وعلى سبيل المجاز ، دون أن يقصدوا منها ما يقصده أصحاب ذلك المفهوم كاستعمال لفظ **الايمان و العقيدة** بمعنى الاعتقاد بضرورة وحدة الامة وتحررها .

أضف الى ما تقدم أن هذا المفهوم السياسي للقومية لا يخلق بين القوميات تعارضاً ولا يمنع تعاونها اذا ما تم لكل واحدة منها تحقيق أهدافها في الوحدة والحرية . وأما المفهوم العقائدي الذي يجعل من القومية القيمة العليا والغاية النهائية والعقيدة الشاملة للوجود، فانه يؤدي الى تعارض تام بين القوميات واتجاهاتها ، ويخلق في كل منها جيلا لا يعرف الانسانية ولا يقدس الا قوميته ، وتتكون البشرية من أجيال من البشر تحركهم وتوقع بينهم العصبيات الخاصة فتدفعهم الى الحروب والاستعمار .

والمفهوم السياسي للقومية ينسجم مع اتخاذ الامة المبادىء الانسانية والاخلاقية والروحية دستوراً لقوميتها ، ولكنه يفسح المجال ضمن الخطوط العامة لمبادىء الامة ومثلها العليا لمختلف طرائق التفكير والتعبير الفني ، أمام الافراد والفئات ، وبالنسبة لكل أمة من الامم .

إن المفهوم السياسي للقومية ينسجم مع كون القومية حقيقة قائمة ووجودا وواقعا ، وهو الذي يعطى هذا الواقع حقه القانوني في الميدان الدولي ويقيم ميزان الحق بين القوميات . ان حرية شعب من الشعوب واستقلاله بالنسبة الى الشعوب الاخرى مرتبط بكيانه ووجوده وارادته .

هذا وان المفهوم السياسي يمكن ان يستند ويتقوى بتاريخ الامة وامجادها وتراثها وما تملكه من قوى معنوية ومادية ، فان ذلك يقوي معنويات ابناء الامة في نضالهم وحماستهم في الدفاع عن كيان ثمين يملكونه ، وعزيز على أنفسهم بما لهم فيه من ذكريات تبعث النشوة أو الألم .

وان النهضة العربية في العصر الحديث مذ بدأت في أواخر العهد العثماني بأعلامها وثوراتها ، وكما تمثلت في نفوس الشعب العربي ، تنهل من هذا المفهوم وتتجه هذا الاتجاه ، ولا سيما في الثورة التي قامت عليها الجمهورية العربية المتحدة ، اذا استثنينا نفرا قليلا أو جماعات قليلة محدودة تكونت لهم بحكم بيئاتهم وظروفهم الخاصة مفاهيم أخرى مختلفة عن هذا المفهوم العام .

٣) القومية باعتبارها عقيدة ومذهباً فلسفياً

ومن الفلاسفة والمفكرين من يرى في القومية مذهبا فلسفيا ، ونظرية اخلاقية ، وعقيدة في الحياة . فالقومية غاية يضحى في سبيلها ومثل أعلى يجاهد لتحقيقه ، ومجدها واعلاؤها هو الغاية النهائيـــة للنضال والعلم والعمل في الحياة وهي فوق القيم الانسانية والخلقية والدينية ، بل هي المقياس الصحيح لهذه القيم ..

فالوجود الحقيقي الخالد هو وجود الامة ، أما الفرد فوجوده عارض وهو مظهر زائل متبدل لحقيقة وراء وجود الافراد وأثبت وأخلد من وجودهم . وللامة روح وشخصية معنوية أقوى من الافراد ، وهي تتجلى فيهم وتتجسد في حياتهم خلال الزمن . فالقومية مبدأ روحي جماعي ؛ وتحقيق روح الامة وشخصيتها المعنوية باستمرار هو هدف الجماعـة وقاعدة السلوك المثلى ولو أدت الى تقييد حرية الافراد أو الاعتداء على الاجانب عن القومية .

لقد أصبحت القومية عند بعض الامم كالالمان في العهد النازي ، تبعا لهذا المفهوم الشامل ، دينا يحل محل الاديان ويزاحمها ، ومذهبا كسائر المذاهب الفلسفية التي تضاهي الاديان في استغراقها لحياة الانسان ،

ولا سيما الناحية العقائدية أو فلسفة الكون والحياة [1] ولهذه العقيدة شعائرها ، التي توقظ روحها وفكرتها في الجماهير ، وأبطالها الذين هم « انبياء » هذه العقيدة و « وحواريوها وقديسوها » . وقد تبلغ حماسة معتنقي هذه العقيدة حداً يدفعهم الى بذل النفس والمال في سبيل الحفاظ على « روح الامة » التي تكاد تحل محل الإله المعبود في الديانات ، والى العزوف عن اللذائذ والعيش عيشة التقشف ، والى ضرب من السلوك والشعور يخيل الى أصحابه انهم صوفيون روحيون كصوفية أهل الاديان وروحانيتهم ؛ وهو شعور ناجم في الحقيقة من ذوبان الفرد في الجماعة ، وطغيان روح الجماعة على الفردطغيانا يشعره ان قوة خارجة عنه تستهويه وتجتذبه ، فيخضع لها خضوع العباد ، ويذهل بها اعجابا ذهول الفنانين .

حتى ان بعض فلاسفة القومية في بعض الامم الاوربية جعلوا للعقيدة القومية ثالوثا يضاهئون به ثالوث المسيحية فان مازّيني الايطالي جعل غاية القومية : الاستقلال والوحـدة والحرية . وكان ثالوث الثورة الفرنسية الاخاء والحرية والمساواة . وجعلها آخرون الوحدة والتحرر

---

(١) قال عمر الفاخوري في كتاب له سماه (كيف ينهض العرب) اصدره في بيروت عام ١٣٣١ هـ :

« لاينهض العرب الا اذا أصبحت العربية أو المبدأ العربي ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم ، والمسيحيون الكاثوليك على انجيل المسيح الرحيم ، والبروتستانت على تعاليم لوثر الاصلاحية ، وثورويو فرانسا في عهد الرعب على مبادىء روسو الديمقراطية ، ويتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك » .

ومن المعلوم ان عمر الفاخوري اصبح شيوعيا بارزا في الطور الاخير من حياته ! . .

والاشتراكية [1] . والحقيقة ان هذه غايات عملية بالنسبة الى الشعوب والامم وتختلف باختلاف حاجاتها وأوضاعها . فالامة المجزأة لا بد لها من الوحدة ، والمحتلة أو المستعمرة تصبو الى التحرر والاستقلال ، والمنظمة تنظيما جائرا طبقيا أو اقطاعيا تتوق الى العدالة والاشتراكية . فهي غايات اجتماعية نسبية تختلف بحسب الاحوال والعهود ، وليست غايات نهائية للانسانية تصلح ان تحل محل الغايات الكبرى التي هي جزء من العقيدة التي يدين بها البشر .

لقد انقلب الواقع في هذه النظرية الى واجب ، والوجود الى مثل أعلى ، والسنة الطبيعية الى قانون اخلاقي واجب الاتباع . وأصبحت القومية شاملة للوجود كله مع انها في الحقيقة جزء منه ، وغدت هي نفسها عقيدة ومثلا أعلى في حين أن كل قومية محتاجة الى عقيدة ومثل أعلى . ذلك ان معنى القومية الانتماء أوالانتساب الى قوم ، فهي للجماعة كالأنا بالنسبة للفرد ، فكيف يصح ان يكون هذا الانتماء نفسه مثلا أعلى وغاية للوجود ؟ قد يكون مقبولا ان يقول انسان اني اختار المثل الاعلى المنسجم مع انتمائي الى جماعة قومية معينة ، أي ان ثمة تناسباً بين كل قومية ومثلها الاعلى ، أما ان يكون مجرد الانتساب غاية في الحياة فأمر غير مقبول .

هذا وان في جعل القومية ذاتها مذهباً اجتماعياً أو اخلاقياً شاملا للوجود مخالفة للواقع وغروراً خادعا من جهة ، وهو سبب من جهة اخرى لنشوء نوع من العصبية الجماعية جرّت في كثير من الاحيان الى

---

(١) حصرت بعض الجماعات اهدافها وغاياتها في شعار (الله والملك والوطن) .

ارتكاب بعض الامم للجرائم والآثام بحق الغرباء عن قوميتهم ، مسوغين ذلك لانفسهم باعتبار أن كل ما يؤدي الى ارتفاع قوميتهم واعلائها فهو ليس مباحا فحسب ، بل واجب يجاهد في سبيله ، وهذا ما وقع فيه النازيون من الالمان . ولا يحل هذه المشكلة الا اشتراك القوميات في أهداف انسانية ومثل عليا مشتركة ، يساهم كل منها في سبيل تحقيقها بقدر استعداده وحسب ميوله وتبعا لمواهبه وخصائصه ، ويشتركون جميعا في الايمان بهذه القيم الخلقية والانسانية ، وبذلك تكون القومية مرتكزا طبيعيا للمثل الانسانية العليا ، وتكون الرابطة في داخل القومية الواحدة وبين افرادها رابطة انسانية اخلاقية ، ويكون الدفاع عن القومية دفاعا عما تحمله من مثل عليا وقيم خلقية ، ويؤدي ذلك الى تعاون القوميات واقامة سلم دائم بينها .

وقد تشترك عدة قوميات في مثل أعلى أو في نظام عقائدي واحد وفي ثقافة مشتركة تنبثق عنه كما حدث ذلك بين الامة العربية والامم الاسلامية الاخرى ، وكما جرى في العصر الحاضر بين الشعوب التي أخذت بالمادية الاشتراكية والنظام الشيوعي ، هذا اذا كانت تلك الشعوب مؤمنة فعلا بهذه المبادىء .

على الصعيد العربي

ان العرب بلغوا منذ عهد بعيد وقرون متطاولة مرحلة الشعور بكونهم امة متميزة من سواها ، لها كيانها ومزاياها . وهذه المرحلة لم تبلغها بعض امم اوربا الا في العصر الحديث ومنذ قرن أو قرنين . وبعض امم العالم لم تصل بعد حتى اليوم الى هذه المرحلة من نضج الشعور الذاتي.

وقد تفتحت في نفوس العرب منذ عهد بعيد الروح الانسانية ، وادركوا كثيرا من القيم الخلقية والانسانية الخالدة . ولكن ذلك كان في اطار الصحراء والقبيلة ، ولم يكن المثل الاعلى مكتملا في جميع نواحي الحياة . فلما ظهر الاسلام اقبلوا عليه ، وهفت نفوسهم اليه ، اذ وجدوا فيه الصورة الكاملة للمثل الاعلى الانساني المنشود الذي تنتظم فيه القيم الخلقية والانسانية في نظام عام وفي افق انساني واسع ، فساهموا مساهمة فعالة في تكوين حضارة انسانية كانوا هم روادها ومؤسسيها ، وسبقوا الامم الى السير في طريق التقدم البشري ، وحملوا رسالة انسانية تعجز اليوم عن حملها الامم المعدودة في الطبقة الاولى في تقدمها وارتقائها ، وكوّنوا عالما ــ ماديا وثقافيا ــ شمل رقعة واسعة من الارض ، وضم في صعيده شعوبا عديدة كانوا هم نواته وقادة الفكر والحكم فيه ، ذلك انه كان مبنيا على ثقافتهم وعلى الدين والكتاب اللذين حملوهما الى الناس .

ولكن عوامل متعددة ، لا مجال لتفصيلها الآن ، أخرجت العرب من مكان القيادة السياسية وان ظلت لغتهم غالبة وثقافتهم منتشرة ودينهم سائدا ، وانتهى الامر الى تكوين عالم سمي **الشرق الاسلامي** ، وافضت

قيادته الى الدولة العثمانية ، التي هي فرع من الدولة السلجوقية ، تولى الرياسة فيها آل عثمان . وكان العرب شعبا من شعوب الشرق الاسلامي وجزءً من أجزاء الدولة العثمانية . وكانت هذه الدولة جامعة لعدد من شعوب الشرق الاسلامي ، ومؤلفة على أساس الوطنية العثمانية والسياسة الاسلامية ــ على النحو الذي فهموه ــ في ظل خلافة آل عثمان . وكان الحكم الغالب فيها للاتراك ، وان كانت الثقافة العربية هي الثقافة الاساسية أو المصدر الاصلي للآداب واللغة ، والدين السائد هو الاسلام . وقد وصف الاستاذ ساطع الحصري هذا العصر في كتابه (محاضرات في نشوء الفكرة القومية) وهو من احسن من يؤرخ لذلك العصر فقال :

« كانت الدولة العثمانية دولة اسلامية بكل معنى الكلمة [1] . كان الاوربيون يسمونها تركيا ، ولكنها هي نفسها ما كانت تتلقب بلقب «التركية» أبدا ، بل كانت تسمي نفسها « الدولة العلية العثمانية » ... هكذا نشأت السلطنة العثمانية مشبوبة بايمان ديني عميق ، متوجهة الى اهداف دينية صريحة . انها كانت دولة اسلامية بكل معنى الكلمة . »

كان الاتراك العثمانيون يعبرون عن القومية بكلمة **الملة** ، وكانوا يقولون على الدوام : الدين والملة شيء واحد .

في الواقع ان السلاطين كانوا أتراكا ، الا انهم ما كانوا ينتسبون الى التركية لان كلمة « التركية » كانت أصبحت في عرف رجال الدولة وكتابها مرادفة للعامية والبدائية .

---

(١) نخالف الاستاذ الحصري في هذا الحكم اذا كان يريد به انها كانت تطبق الاسلام وتحكم بروحه وتعاليمه ، فقد كانت بعيدة عن ذلك ، ونرجح انه يريد انها بنيت على مفهوم اسلامي في جمع الشعوب في اطار واحد .

ويظهر من كل ما تقدم ان كل شيء في السلطنة العثمانية كان ينعت طورا بالعثمانية وطورا بالاسلامية ، ولكنه ما كان ينسب الى التركية أبدا .

وأما فكرة القومية التركية بمعناها المتميز عن العثمانية وعن الاسلامية على حد سواء .. فما كانت تجول لا في خواطر رجال الدولة ومنوري الامة ولا في أذهان سواد الشعب وعوام الناس .

ولذلك كانت دوائر النفوس تسجل العثمانيين حسب دياناتهم ومذاهبهم دون أن تلتفت الى لغاتهم وقومياتهم ..

اذا استعرضنا الآثار الادبية الحماسية وجدنا انها تتكلم على الدوام عن الوطن العثماني وعن الامة الاسلامية ، وتتباهى بامجاد العثمانيين ومفاخر المسلمين ... ولكنها ما كانت تنسب ذلك الى القومية التركية ، حتى انها ما كانت تذكر كلمة الترك والاتراك على الاطلاق .

ان الاتراك العثمانيين كانوا ـ حكومة وشعباً ـ مرتبطين بفكرة **الوطنية العثمانية الاسلامية** ارتباطاً شديداً ، وبعيدين عن الشعور بالقومية التركية بعداً كبيراً .

والاحوال استمرت على هذا المنوال حتى أواخر القرن التاسع عشر، بل حتى أواخر العقد الاول من القرن العشرين ، وبعد ذلك بدأت فكرة القومية التركية تعمل عملها في النفوس[1] .

بدأت اليقظة والنهضة في البلاد العربية وفي جميع اجزاء الدولة العثمانية بسبب الاتصال باوربا بالمطالبة بالحريات الداخلية والضمانات الدستورية ، وكانت هذه الحركة تستمد من مزيج من الافكار الغربية كمبادىء الثورة الفرنسية والافكار الاسلامية .

(١) ص : ١١٣ ـ ١٢١

ثم تطورت النهضة الى حركة لا مركزية ثم الى حركة انفصالية استقلالية ، وكان من أهم دوافعها ما ظهر في الاتراك في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين من العصبية التركية ، وما انتشر من الظلم والفساد . ولم يجد العرب من أسباب المغايرة والمباينة بينهم وبين الاتراك ، وكلهم مسلمون ، الا اختلاف القومية ؛ فكانت العربية نقطة الاستناد للانفصال عن الاتراك العثمانيين ، بالاضافة الى انتشار موجة القوميات في اوربا في هذه الحقبة من التاريخ بوجه خاص . ولما استولت الدول الاستعمارية الاوربية على البلاد العربية بلدا بعد بلد اشتدت الحركات الاستقلالية للتحرر من سلطان الحكام الجدد الذين يختلفون عن العرب لا من جهة القومية فحسب بل من جهة الدين أيضاً .

وفي خلال هذا التطور السياسي كان يجري تطور اجتماعي يقوم على أساسين : **احدهما** الاعجاب بالحضارة الاوربية واكبارها والشعور بالضعف والدهشة امامها ، والتأثر بسبب ذلك بمظاهرها وأفكارها ؛ **والثاني** نمو الشعور الذاتي والوعي القومي في العرب .

رد الفعل امام الحضارة الاوربية

اما رد الفعل أمام الحضارة الاوربية فكان في بادىء الامر ضربا من الدهشة والذهول أمام لغز لا يحل ، وقف أبناء الشرق الاسلامي تجاهه على اختلاف قومياتهم موقف المستشعر بضعفه ، المحتقر لنفسه ، المعجب الى حد الذهول بغيره . وكان هذا الموقف النفسي سبباً لأنواع من الانفعالات الفكرية . وكان التفكير يدور حول (أسباب تأخر الشرق) و (تقدم الغرب) في سلسلة من الموازنات والمقارنات في شتى نواحي الحياة بطريقة تختلف من واحد لآخر حسب ثقافته ومعتقداته ، وكثيراً

ما كانت هذه المقارنات سطحية لا تنفذ الى الاسباب الجوهرية العميقة بل تكتفي بمظاهر المغايرة بين الشرق والغرب وجعلها هي أسباب التأخر والتقدم دون رد هذه المظاهر في كل منهما الى جذورها التاريخيـة والاجتماعية .

واستعد الشرق في هذه المرحلة لتقليد الغرب في كل شيء ، والتأثر به في كل الميادين ، واتخاذ الامم الاوربية نموذجا للاقتداء ؛ ولذلك وجب تحديد خصائص المدنية الاوربية في العصر الذي بدأ به اتصال الشرق بالغرب بالاضافـة الى خصائص الشرق الاسلامي الموروثة في حالهـا الاخيرة لمعرفة التطورات التي مر بها والصفات التي اتصف بها .

وقد كانت فرنسا من أبرز الامم المتمـدنة في ذلك العصر ، وكان لثقافتها ونظمها الاثر الاول في الشرق ، وكان السائد في اوساطها المثقفة المذهب العقلي الوضعي من الوجهة الفكرية ، والربيبة والالحاد في ميدان الدين ، واللذة والسعادة في ميدان الاخلاق ، والديمقراطية والبرلمانية في ميدان الحكم ، ويعتبرون الفرد وحريته الاساس في الدولة والمجتمع ولذلك كان الحكم هو التأليف بين مصالح الافراد الساكنين في ارض الوطن ايا كانوا ، لا رعاية المثل العليا المنبثقة عن تاريخ الامة وحضارتها ، ولذلك كانت الفكرة التي يبنى عليها المجتمع الفرنسي هي الارض أو الوطن اكثر من ان تكون مبنية على الامة المتحدرة من اصول تاريخية .

ان هذه الفلسفة العقلية الالحادية الفردية النفعية التي كانت غالبة على المدنية الفرنسية ، أثرت تأثيراً عميقا في طرق التفكير ونظم التعليم والحكم في الشرق الاسلامي وخاصة الشعوب التي تتكون منها الدولة العثمانية ، ومنهم الاتراك والعرب .

نمو الشعور الذاتي

اما نمو الشعور الذاتي وازدياد الوعي الداخلي فقد كان العامل الثاني في تكوين العرب الحديث ، وقد بدأ منذ اشتدت حركة الانفصال عن الاتراك ، وازداد شدة بالحركات الاستقلالية للتحرر من الاستعمار وكان ابرز مظاهره الاولى الاعتزاز بالماضي والافتخار بالتاريخ ، وكان ذلك سببا في التأمل والتفكير في هذا الماضي وتمييز الصفحات المجيدة منه والتفتيش عن مواطن القوة وأسباب النجاح والتقدم . وأصبح للعرب مصدران يستمدون منهما القوة : **احدهما** خارجي يجدونه في نماذج الامم الاوربية ،**وثانيهما** داخلي وهو تاريخهم وحضارتهم . وكان هذا المصدر الثاني يتزايد قوة ويتسع أفقا ، وما يزال كذلك حتى يومنا هذا . وتختلف نظرة الناس التحليلية الى الغرب والى تاريخ الامة وذاتيتها ، وفي تمييز الجوهري من غيره والاصيل من العارض في كل منهما ، في عمق هذه النظرة أو سطحيتها كما يختلفون في التنسيق بين المصدرين والتوفيق بينهما في نظرة جامعة . ومن هنا نشأت في هذا العصر في العرب تيارات وآراء ونظرات مختلفة ، تبلغ في غلوها أحيانا في الاعتماد على المصدر الخارجي حد الشعوبية والارتداد عن عقيدة الامة العربية وحضارتها ومجتمعها ، كما تبلغ حد الجمود في الاعتماد على المصدر الداخلي ولا سيما في طوره الاخير الموروث وحالته المتردية أحيانا اخرى .

ولئن كان الاتصال بالغرب قد أوقد شرارة اليقظة وسبب حركة الدم في الجسم الراكد وكان من هذه الناحية خيرا ، فانه من جهة اخرى فتح في جسم العرب ثغرة نفذ منها الكثير من الافكار الغربية وانتقل عن

طريقها كثير من أمراضه أو أعراضه المرضية . ان الشعور الذاتي والوعي القومي الذي حدث كان طبيعيا في هذه الحقبة من تاريخنا ، ولكن هذا شيء والصيغة التي صيغ بها هذا الشعور والفكرة التي عبر بها عن هذا الوعي شيء آخر . ومن الواجب المحتم التنبه الى مداخل الشعوبية والنفوذ الاجنبي في صياغة الافكار وفلسفة الوعي . وننتقل هنا الى مرحلة اخرى من مراحل يقظتنا في هذا العصر .

مرحلة تحديد الذات

ان الشعور الذاتي في الامة العربية ظهر قبل الحقبة الاخيرة ، أي الى ما قبل ثلاثين سنة تقريبا ، في مظهره السياسي ، فلم يكن يشعر الناس بحاجة اشد من حاجتهم الى الاستقلال السياسي . ولذلك أخذ هذا الشعور الذاتي في العرب شكل حركات تحررية استقلالية وطنية ، هدفها استقلال الاقطار العربية موضعيا ثم اتحاد هذه الاقطار في دولة واحدة . ولذلك لم تكن تلك الحركات الوطنية ذات برامج اصلاحية مدروسة ، كما انها لم تكن مستندة الى فلسفة محددة أو عقيدة معينة ، وهي بالنسبة الى جمهرة الشعب تستمد من روحه وعقيدته ودينه وتاريخه وقوميته دون ان يكون ثمة حاجة لفلسفة هذا الشعور في صيغة جديدة.

لم يكن ثمة مناص من الانتقال من الحركة السلبية بعد ان تحررت أكثر الاقطار العربية الى حركة ايجابية توجيهية بنائية . فقد قوى الشعور الداخلي بسبب قوة الصدام مع الاجنبي المستعمر والشعور بالتمييز عنه وبسبب الغزوات الفكرية الجديدة التي هاجمتنا من الخارج، فكانت **مرحلة التفتيش عن الذات** وتحديد معالمها وأصبح السؤال المطروح هو **من نحن ؟ ما هو كياننا ؟ ما هي مقوماتنا ؟** .

وظهرت هنا في بعض البلاد العربية التي هي في اطراف الجزيرة ـ وتخوم العروبة تلك تختلط فيها منذ القديم الامم والاجناس والديانات ولم تصهرها العروبة بعد الفتح صهراً كاملا في بوتقها ـ ظهرت في هذه البلاد وفي بعض الاوساط والبيئات ذات الاوضاع الخاصة أجوبة تمثل الانحراف عن الجادة وعن جمهرة الشعب ، كجواب القومية السورية المصطنعة ، والفرعونية ، والفينيقية ، من القوميات الاقليمية الضيقة التي اخترعت أحيانا ولفقت وصنعت لاغراض خاصة وتنفيسا عن رغبات مكبوتة .

ومع ذلك فان تحديد صفة العروبة على انها انتماء الى قوم وانتساب الى امة لم يكن في الحقيقة كافيا في الطور الاخير من حياتنا . فان الغرب يقف أمامنا، لا في شكل قوميات فحسب من فرنسية وجرمنية وسكسونية، بل في شكل مذاهب فكرية وعقائد اجتماعية ، ملحا علينا بالجواب ، عارضاً علينا مذاهبه وعقائده ونفوذه الثقافي الفكري ، غير مكتف بجوابنا أننا عرب .

ذلك انه يعرض علينا اشتراكيته المادية (الشيوعية) أو ديمقراطيته الرأسمالية لنلتحق بمعسكر من معسكراته العقائدية . واذا اكتفينا بتحديد قوميتنا واننا عرب وجد أمامه فراغا قابلا لان يملأ ، ذلك لان القومية لا تعني مذهبا من مذاهب الحياة وعقيدة من العقائد وان كانت تعني شعورا اجتماعيا ، وتماسكا وتضامنا ، وانتسابا الى أمة وجنس ، ودفاعا عن كيان اجتماعي في رقعة من الارض .

ان تلك المذاهب التي كانت امم الغرب تقدمها لنا ، لها في تلك الامم جذور ، وكانت نتيجة تجارب وظروف تاريخية معينة بالنسبة اليها وان

وجدت فيها بعض العناصر الانسانية العامة التي تكون أحيانا أحد عناصر الاغراء بالنسبة للمنجذبين اليها من أبناء قومنا ، وكان ينبغي أن يكون الجواب المنطقي الطبيعي لهذه المذاهب المعروضة ان يتخذ العرب من تاريخهم وعقائدهم وحضارتهم ما يقابلون به تلك المذاهب . فان العرب لا يبدؤون الآن من الصفر كما يزعم الشعوبيون ، بل ان لهم رصيدا ضخما في تاريخ البشرية والحضارة . ولئن اعترى حضارتهم ودينهم وتاريخهم تشويه في العصور الاخيرة ، فان ذلك لا يمنع ان يكون وراء عصور التشويه هذه عصورا زاهرة نضرة ، وحضارة اصيلة ، وعقائد صافية حية .

ان الطريق الوحيد لمنع الغزو العقائدي الاجنبي هو ان يكون لنا نظام عقائدي سليم قابل للحياة يتصل بنا وبتاريخنا وعقائدنا دون الاكتفاء بالانتساب الى قوميتنا . ذلك لان القومية انتساب وانتماء ووجود ، وليست في ذاتها عقيدة في الحياة . فاذا اكتفينا بهذا الانتساب ، واقمنا من القومية نفسها عقيدة ومذهبا في الحياة ، كنا كمن أخلى الساحة وأوجد الفراغ وفسح المجال للغزو الخارجي ان يتدفق حيث لا يجد عائقا ولا مانعا ، ولذلك كانت الحركات القومية المستندة الى مجرد عاطفة الفخر والاعتزاز ، أو لمجرد المقاومة السلبية للغزو الاجنبي ، غير مانعة من تسرب الغزو العقائدي ، ولا تتصف بأي مناعة امام المذاهب الاجنبية ، ولا سيما اذا اكتفت بتحرير الجيل من رواسب عصور التشويه والانحطاط الاخيرة ، فهي بذلك تجري عملية تفريغ وتخلية وكأنها تنتظر بعد ذلك من يملأ الساحة الفارغة من الخارج ، ولهذا تعالى في أوساط بعض المثقفين نداء بحاجة القومية العربية الى **ايديولوجية** أي مذهب عقائدي أو ، بتعبير آخر يجري أحيانا على ألسنة بعضهم ، **(الحاجة الى**

تحديد المحتوى) ، وكأن الامة العربية في هذا العصر وقبل ذلك بقرون تعيش في اطار فارغ من أي محتوى ، مجردة من أي ايديولوجية أو اتجاه عقائدي في الحياة . وهذا الادعاء ناشيء عن أن معاول التحرير المستعارة من الغرب هدمت جميع القيم الموروثة ، سواء منها الدخيل أو الفاسد الذي يستحق الهدم ، والاصيل الصالح الذي يستحق البقاء . ولكن جمهور الشعب العربي في كل بلد لم يستمع لهذا النداء لانه يجد فيه ما يتضمن الحط من شأنه والغض من قيمة الامة العربية ، فهذه الامة لم تعش يوما واحد دون عقيدة منذ قامت دعوة ابراهيم الاولى في رحاب مكة تنادي بعقيدة التوحيد ، وان كانت هذه العقيدة أخذت أشكالا وصورا عديدة تتناسب مع الزمن كما قضت بذلك حكمة الله في سنن الكون والمجتمع . ان الشعب العربي يشعر كل الشعور بقوته الروحية وغناه وانه يأوى الى ركن شديد ، ولا يشعر بالنقص والفقر والحاجة .

على اني اقف هنا مستدركا معقبا على هذا القول بأنه اذا كان القصد من الايديولوجية الجديدة عملية تهذيب عقائدنا الموروثة من العصور الاخيرة لنفي الدخيل عنها ، وازالة ما علق بها عبر القرون ، وما غشيها من عناصر طارئة أو طفيلية أو غريبة فاسدة ، ثم التوفيق بينهـا وبين ظروف حياتنا الحديثة ومراحلها مع الحفاظ على الاساسي الجوهري منها ، اذا كان هذا ما يراد بالدعوة الى ايديولوجية جديدة للامة العربية فاللهم انه لرأي مقبول ، ولكنه مع ذلك موضوع في قالب ينبو عنه العقل العربي الذي يعتقد بحق انه من عهود بعيدة جدا أصاب كبـد الحقيقة ، وشرفه الله بادراك العقيدة الخالدة ، وأي مثل أبرز واوضح في هذا الباب من ان محمد بن عبد الله ــ صلوات الله عليه ــ حين جاء بالاسلام الذي كان اعظم ثورة وانقلاب في حياة العرب والعالم ، لم

يدّعي انه اتى بعقيدة جديدة ، بل قال انه جاء ليحيي ملة أبيهم ابراهيم وليتمم مكارم الاخلاق .

عوامل جديدة في تطور الوعي العربي

ان ثمة عاملين أو سببين كان لهما في هذه الحقبة من الزمن تأثير في الاتجاه العام الذي اتجه فيه الوعي العربي في الطبقة المثقفة رغم العوائق أو العوامل المعاكسة :

أولهما ان احياء الثقافة العربية والتاريخ العربي خلال جميع العصور ، وبعث آثارهما ، والبحث المتعمق فيهما أدى ، بطبيعة الحال وبمنطق البحث، الى الكشف عن معالم الحضارة العربية التي امتدت بعد الاسلام في رقعة واسعة من الارض وفي ميادين مختلفة ، سواء في اللغة والادب ، أو الفقه والتشريع ، أو الفلسفة والعقيدة ، أو العلوم الطبيعية . وكانت الحقبة التي ظهر فيها الابداع والانتاج ، وارتفعت فيها القيم الخلقية والانسانية ، وأثرت أحسن التأثير في تطور الحضارة الانسانية هي تلك التي امتدت من ظهور الاسلام الى القرن الثامن للهجرة ، وبوجه خاص القرون الثلاثة الاولى . ولم تكن تلك الحضارة ، كما زعم الغربيون بدافع العصبية والحقد ، مجموع شتات من الحضارات كاليونانية والفارسية ، اذ ان البحث العلمي متجه نحو اثبات طابع خاص لهذه الحضارة ، ومجالات تقدم فيها العلم في طرق جديدة ، وميادين ارتفعت فيها النفس الانسانية ، ومقاييس جديدة كل الجدة في التشريع . ذلك ان رسالة الاسلام التي حمل العرب لواءها كانت الناظم لهذه الحضارة .

فلم يأخذ العرب كل ما وجدوه امامهم من حضارة فقد كانت بأيديهم مقاييس وقيم ، بها يأخذون أو يرفضون ، ويتقدمون ويبدعون . وكانت

هذه الرسالة كذلك حافزا ودافعا لهم في آفاق الحياة . ان الابحاث اللغوية والتاريخية والفقهية والفلسفية في تاريخ العرب تؤدي كلها الى حقيقة ترتفع واضحة أمام كل باحث ، وهي ان ثمة صلة عميقة بين العرب ورسالة الاسلام لا يمكن لاي باحث ان يتجاهلها أو يتغاضى عنها مهما تكن قوميته او نحلته أو عقيدته . ولذلك بدت في هذا العصر ظاهرة رائعة تدل على هذه الحقيقة وعلى حدوث الوعي في الشعب العربي وصحة اتجاهه ، ذلك ان الذين عبروا عن هذه الحقيقة في هذا العصر من كتاب العرب كان منهم المسلمون والمسيحيون[1] ، ولبعض الكتاب والشعراء المسيحيين من أبناء العروبة كلمات بليغة رائعة في هذا الموضوع ككثيرمن شعرالشاعر القروي رشيدالخوري ، ومقالات الدكتور نظمي لوقا في كتابه (محمد الرسول والرسالة) ، والدكتور اديب نصور والدكتور جميل صليبا وهذه الظاهرة ذات مغزى عميق في دلالتها على نضج الوعي في الشعب العربي والوصول الى اعتبار الاسلام تراثا قوميا لجميع العرب على اختلاف نحلهم وديانتهم ، وينبوعا أساسيا بالنسبة للامة العربية .

---

(١) من ذلك ما كتبه جورج انطونيوس سنة ١٩٣٨ في (يقظة العرب) ص ٢ ــ ٦ من الترجمة العربية ونبيه فارس وحسين توفيق في (هذا العالم العربي) ص ١٥ ــ ١٦ و ٤٦ ــ ٤٨ وامين نخله في مقدمة كتاب (محمد السوبرمن الاول) للبيت الرياشي ، وميشيل عفلق في كلمته التي القاها بمناسبة مولدالرسول العربي (صلى الله عليه وسلم) ، وعمرالدسوقي في (الفتوة عند العرب) ، والدكتور جميل صليبا في محاضرته منازع الفكر العربي . ويلاحظ ان فيما كتبه الاستاذ ساطع الحصري في هذا الموضوع تطوراً واضحا بين ماكتبه في (العروبة أولا) عام ١٩٥٥ وبين ما كتبه في (ما هي القومية ؟) عام ١٩٥٩

أما العامل الثاني الذي كان له أثر في هذا الاتجاه نفسه فهو التطور الطبيعي والسير المنطقي للتفكير القومي . ذلك ان الاتجاه القومي في التفكير يسير نحو الخصائص المميزة والمقومات الذاتية للامة . وحين انتقل الوعي القومي من المرحلة السياسية والمادية التي رسمت الاطار والقاعدة الارضية والبشرية الى المرحلة الفكرية اضطر هذا التفكير ان يبحث عن خصائص الحضارة العربية وما مرت به من مراحل وحققته من أهداف ورسمت من مثل وفتحت من آفاق، وما تميزت به من اتجاهات وما انبثق عنها من تفكير وتجاوب معها من معتقدات ومثل عليا . وكان لا بد ان يصل التفكير القومي في مسيره الطبيعي المنطقي الى الالتقاء بما ظهر في العرب وجزيرتهم من موجات متعاقبة كان اوسعها افقا وأعمقها أثرا الموجة الاسلامية . فان العقلية العربية والنفسية العربية لا يمكن ان تعرف خصائصها واتجاهاتها ، وتلمس نبضاتها وتحدد آفاقها ، بدراسة حضارات أو ديانات ظهرت وانتشرت وترعرعت خارج الجزيرة العربية ، أو بين أقوام آخرين ، أو في بيئة اختلطت فيها الاجناس وتداخلت فيها اللغات ، ولو أنها اتصلت بالعرب بعض الاتصال بسبب اتصال العرب بعدد من الاقوام القريبين منهم في الأصل والعرق أو البعيدين ، وبحضارات مختلفة وديانات متعددة ، سواء ماكان منها قريبا اليهم والى نفوسهم أو بعيدا عنها . هذه هي الحقيقة التاريخية التي التقى عندها البحث العلمي في مسيره والوعي القومي في تيقظه ، وهي ليست تاريخية فحسب، بل ان حاضر العرب وواقع جماهيرهم يؤيدها . ولكن امام هذه الحقيقة عوائق حالت ولا تزال تحول دون ظهورها ظهورا كاملا ، وهذه أهمها :

أولا : الالتباس الحاصل بين (الاسلام) في شكله ومفاهيمه الموروثة عن عصور الانحطاط الاخيرة ،و (الاسلام) في شكله الصافي وكما

فهمه العرب الاولون في صدر الاسلام . فالاسلام الموروث مزيج من رواسب مختلف العصور انقلبت فيه القيم وتغيرت النسب وتشوهت المعالم وتبدلت المفاهيم وهذا المزيج الموروث اطلق عليه كذلك اسم (الاسلام) ، وهو مختلف اختلافا كبيرا عن الاسلام الاصيل الذي خرج به العرب الى العالم حيوية متدفقة ، وانسانية سامية ، وروحانية ايجابية، وعدالة مناضلة ، وايمانا فعالا ، وشعورا عميقا بالمسؤولية امام الله ، واخوة انسانية بين البشر والديانات .

ولقد بدأت نهضتنا بصراع بين العقلية الاوربية المادية بما فيها من عناصر القوة والحيوية ، والاسلام الموروث مع ما اقترن به من أسباب الضعف وعوارض التشوه والمرض ، حتى أصبح الاسلام ، بنتيجة هذا الصراع ، وبهذا المعنى ، شيئا يتحرر منه لا ينبوعا ينهل من فيضه ، فالتبس الامر على الناس حين اصطدموا بالحقيقة التي ساروا نحوها واوصلهم التطور اليها ؛ ولكن الطليعة المثقفة سرعان ما ادركت الحقيقة، وازالت الالتباس ، وعرفت ان الصراع في الماضي القريب كان صراعا بين العقلية المادية الحديثة التي تمثل شعوب اوربا والصورة المشوهة للاسلام، وهو صراع كفة الغلبة فيه في جانب العقلية المادية المنظمة . ولكن الصراع الجديد ــ وهو الصراع العنيف في معركة الذاتية الحاسمة ــ بين العقلية العربية التي تمتد جذورها العميقة الى العقلية العربية الاولى التي تبنت الاسلام الاول فكان صيغتها الحضارية ورسالتها الانسانية والصلة بينها وبين العالم ، بل بينها وبين الوجود كله ، وكانت عالميته وانسانيته دليلا على تشريف الله لهذه الامة ببلوغ مرحلة الانسانية في نضجها واكتمالها وقدرتها ، وتجاوزها مرحلة القومية المغلقة التي تقصر فعاليتها على نفسها.

ان الاسلام الموروث المشوه كان مقترنا مع كيان الدولة العثمانية ،

معاصرا لها ، منسجما معها . وهذا الاسلام الاصيل الحي الانساني اقترن مع النهضة العربية ولازمها وانسجم معها ، وتجاوب بعثه مع بعثها ، ولذلك كان قتال الاستعمار في جميع صوره ، والاستشراق في الاوساط اليهودية والاوربية الغربية والشيوعية ، منصبا على هذا الاسلام الحي الاصيل الملازم لنهضة الامة العربية ، وبنتيجة ذلك ، لنهضة الشعوب الاسلامية التي ستتأثر بنهضتها وتهتدي بهديها .

ثانياً : أما السبب الثاني من الاسباب التي حجبت هذه الحقيقة وعاقتها عن الظهور بوضوح ، فهو تأثر الطبقة المثقفة من ابناء العرب بحضارة الغرب ، وأخذهم بأكثر مفاهيمها وافكارها ومذاهبها . وبدأ هذا التأثر منذ اتصل الشرق الاسلامي ، ومن ضمنه الشعب العربي ، بالحضارة الاوربية من نحو قرن . وكان هذا التأثر آخذا بالازدياد ، وكان سيل الحضارة يسير من الارض المرتفعة الى المنخفضة ، سنة الله في الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا . وقد اشرنا آنفا الى المرحلة الاولى من هذا الاتصال ، حينما كانت **المدنية الفرنسية** هي السائدة الظاهرة . ثم جاءت مراحل تأثرنا فيها بروافد اخرى من روافد الحضارة الاوربية ، منها **الثقافة السكسونية** التي نقلناها عن الانكليز والاميريكيين عن طريق مدارسهم التي أسست في بلادنا وجامعاتهم التي يؤمها طلابنا ؛ ومنها **الثقافة الالمانية** ، ولا سيما في الفترة التي لمع فيها نجم النازية ما بين ١٩٣٠ ــ ١٩٤٠ وكان لها دعاية عالمية ضخمة أثارت يومئذ اعجاب كثير من الناس اثارة حفزتهم الى تقليدها وقراءة نظرياتها ، فراجت نظريات فلاسفة القومية الجرمنية المبنية على فكرة العرق وصفائه ، والعبقرية القومية ، والاستعلاء القومي ؛ ومنها **الثقافة الشيوعية** ، وقد بدأت بذورها من أكثر من ثلاثين سنة ، ولكن فترة نشاطها وموجة انتشارها

كانت بعد الحرب العالمية الثانية ، ولا سيما في الفترة التي توافقت فيها مصلحة العرب ومصلحة الدول الشيوعية ، الى ان تبدل الموقف السياسي الدولي ، ووقف الرئيس عبد الناصر في وجه تيارها الجارف وقفة غيرت مجرى حوادث التاريخ ، والى ان كانت مأساة العراق .

ان هذه الروافد العديدة المختلفة التي كانت تغزو بلادنا العربية ، ولا سيما الطبقة المثقفة ، بسيل أفكارها ونظرياتها ومفاهيمها ومذاهبها ، على ما بينها من اختلاف ، تشترك في أمر واحد هو مكافحة المفاهيم العربية الاصيلة ، ومحاربة الاسلام في أفكاره ونظراته ومبادئه وعقائده ، بل محاربة تراث الديانات السماوية كلها . ومررنا بمرحلة تتصف بالتقليد لا تقليد الماضي القريب ، بل تقليد الامم الاجنبية ، وتتسم بالنقل . ونحن وان كنا لا ننكر ما عاد به علينا هذا النقل والتقليد نفسه اذ وصلنا بدم الحياة المتحرك بعد الجمود ، فاننا ندرك أيضا انه نقل الينا خصائص صاحب الدم المنقول الى جسمنا وأعراضه وأمراضه .

لقد انتقلت الينا مشكلات ليست هي مشكلاتنا ، ولم تكن قد ظهرت بعد في مجتمعنا ، وانتقلت الينا مفاهيم واحكام هي بنت بيئتها ، ونتيجة ظروف تاريخية لامة أو لامم غير امتنا ، ومن هنا تولد الخطأ والسطحية مع شعور مرتكب هذا الخطأ انه من الرواد والطليعة ، ومن الصفوة المختارة والنخبة المثقفة . وعن هذا الطريق اخذنا مفاهيم غريبة خاطئة عن الحياة والاخلاق والدين والقومية ، بل عن هذا الطريق فهم الكثيرون منا تاريخ امتهم ، وحكموا عليه بمنظار تلك الثقافات الاجنبية ومقاييسها ، وفهموا الاسلام كذلك بهذه الطريقة نفسها ، وكانت لذلك كله نتائج خاطئة وغريبة ، وقد تبلغ أحيانا منتهى الغرابة .

والبحث في تأثرنا بالحضارة الغربية بمراحله واطواره وتتائجه بحث هام جدير بالعناية وبأن يفرد بالدراسة ، ولكن ما أردنا ان نقوله هنا هو ان هذه المفاهيم الاجنبية المقتلعة من بيئتها وارضها ، والمنقولة الينا ، هي من أهم العوامل التي كانت تفصلنا عن تاريخنا ، وتعزلنا عن خصائصنا، وتقصي أبناء الامة العربية عن النظر الى الاسلام على انه تراثهم ، وينبوع ثقافتهم ، والمنهل الخالد الذي ينهلون منه عناصر رسالتهم ، ويستوحون اتجاهاتهم في الحياة ، وذلك بقيـاس منطقي سخيف يتلخص في ان الاسلام دين ، وكل دين أصبح من مخلفات الماضي التي يجب ان تقصى عن الحياة ، فيجب اذن اقصاؤه ؛ أو بهذا المنطق الآخر : الاسلام دين ، والقومية لا تبنى على الدين ، ولا يكون الدين عنصراً أساسيا فيها ، لذلك وجب اقصاء الاسلام عن القومية العربية . ان هذه الاقيسةالمنطقية التي تلخص لنا تفكير فريق من الناس ملأى بالمغالطات ، ومشوبة الى حد الاشباع بالمفاهيم الاجنبية الغربية . فكلها مبنية على مفهوم خاص للدين نشأ ونما في اوربا وفي ظروف خاصة بها ، ولم يتنبه أصحاب هذا المنطق الى ان الاسلام بطبيعته أولا ، وبحكم صلة العرب التاريخية به من حيث منشؤه وانتشاره ثانيا ، ليس بالنسبة للعرب بمثابة الدين من القوميات الاوربية ، فالوضع مختلف كل الاختلاف ، وعرض قضية القومية والدين عرضا عاما دون مراعاة الظروف التاريخية للقومية والدين اللذين هما موضوع البحث عرض خاطىء من أساسه لاختلاف خصائص القوميات ، واختلاف صلة كل منها بدين أو أديان معينة .

ان حلول مشكلاتنا يجب ان تنبثق من مفاهيمنا الاصيلة وظروفنا التاريخية ، لا ان تصنع صنعا بمقاييس غيرنا ومفاهيمه وحسب ظروفه ثم تنقل الينا أو تفرض علينا .

ثالثاً : أما السبب الثالث الذي كان يعوق اتصال القومية العربية بحضارة الاسلام ، ويعرقل الوعي الصحيح السائر في طريقه الطبيعي ، فهو عدم طرح القضية والنظر اليها في اطارها العربي العام ، وحلها على أساس النظر الى بعض اجزاء البلاد العربية ثم تعميم الحل خطأ بعد وضعه على الاساس الجزئي .

ان البلاد العربية في واقعها لا يقبل جمهور شعبها فلسفة اجنبية مستقاة من غير تاريخه وعقيدته ، وان وضع أي مفهوم للقومية العربية يعارض هذا الاتجاه هو مفهوم مصطنع غير واقعي .

ان أمامنا حقيقة واقعة لا يمكن مطلقا تجاهلها ، وهي ان القومية العربية بالنسبة الى جمهور الشعب العربي ، في مجموعه وفي جميع أقطاره ، لا يمكن ان تنفصل في جذورها عن التاريخ والحضارة الاسلامية ولو ان دائرتهما أوسع نطاقا وهذا الاتجاه واضح حتى عند كثير من أبناء جلدتنا من نصارى العرب ممن اشرت اليهم سابقا ، وقد عبر عنها بعضهم في الشعر والنثر بأروع القول وأعمقه وأبلغه .

ولو ان الامور سارت سيرها الطبيعي لما وجد أحد في ذلك ضيراً ولا غرابة ولا غضاضة ، ولكن ميراث الماضي القريب في عهود الانحطاط انتهى في بعض البلاد العربية كبلاد الشام الى وضع خاص . ذلك ان التقاء الاديان والطوائف ، واجتماع الاجناس في تخوم البلاد العربية لم يكن دوما التقاء واقعا في ظروف تاريخية حسنة كما كانت الحال في عهد الفتوحات الاولى ، فقد ورثت الاكثرية المسلمة في هذه البلاد تلك الصورة المشوهة الجامدة للاسلام ، وتلك المفاهيم والنظرات الضيقة ، وعاش المواطنون من ابناء الاديان الاخرى في جو يكاد يكون مغلقا في

كثير من جوانبه . وكذلك عاشت طوائف انفصلت منذ عصور عن جمهور المسلمين بعقائدها وعاداتها وكونت مجتمعات خاصة . وهكذا تكوّن في بعض البلاد العربية مجتمع منقسم الى مجتمعات خاصة كان يسيطر فيها ـ نتيجة ظروف تاريخية مرت في القرون الاخيرة من تاريخنا ـ شعور الحذر المتقابل وشعور الانتماء الى مجتمعات خاصة منفصلة عن المجتمع العام ومتميزة عنه . وهكذا برزت في العصر الاخير وفي بعض البلاد العربية مشكلة الطائفية بسبب ما أصاب الاسلام ، في تلك العصور التي تنحى فيها العرب عن القيادة السياسية والفكرية ، من قلب للقيم وجمود في الفهم وضيق في النظر . ولما جاءت عهود الاستعمار في العصر الحديث زادت في توسيع الشقة وتوجيه النظر الى مواطن الخلاف واغفال نواحي الاشتراك والاتفاق .

ان هذا التركيب الاجتماعي ادى بطبيعة الحال الى مفاهيم منحرفة في فهم القومية العربية ورسالة الامة العربية دفع اليها فهم موروث خاطىء لتاريخ العرب وللاسلام وعجز عن التجرد عن ميراث تلك البيئات الضيقة والمجتمعات المغلقة ، ورغبة كامنة نشأت عن هذا الوضع في اقصاء الامة العربية عن الخط الطبيعي لسيرها ، والتكوين التاريخي لمفاهيمها وقيمها ، لم تنشأ عن فساد نية ولاسوء قصد ، ولكن الظروف التاريخية والرواسب الماضية والتركة المثقلة هي التي قادتها بطبيعة الحال الى هذا النوع من التفكير المنحرف عن خط السير الطبيعي للامة العربية . وادى ذلك الى جعل القومية العربية قالبا فارغا بعد ان جرد من مضمونه ومحتواه لشبهة الطائفية وتهمة العصبية ، ولو ان محتواه الحقيقي كان انسانيا وكان عنصراً أساسياً في تركيبها وجوهر تكوينها .

ان من الجناية بحق الامة العربية ان نجعل بعض الاعتبارات الزمنية ،

والاوضاع الاقليمية الجزئية الطارئة ، تتحكم في حقائق خالدة هي في الصميم من كياننا وتتعلق بذاتيتنا وبمستقبل قوميتنا ورسالتها وخصائصها .

ان الصادقين المخلصين من المسيحيين العرب أصبحوا ينهجون في التفكير نهجا يرتفع كثيرا فوق هذه المجاملات التافهة السطحية التي تجري على حساب القومية العربية وعلى حساب الحقيقة الخالدة .

فلم يعد الكلام عن الاسلام في معرض البحث عن العرب وتاريخهم طائفية ، ولا الحديث عن القرآن كتاب العربية الخالد رجعية . لقد مضى ذلك الزمان الذي كان فيه الوعي العربي نائما ، بل لقد أصبحت الرجعية اليوم في ان لا تكون بلغت من الوعي مرحلة تجعلك تدرك الصلة بين الامة العربية والاسلام .

الصلة بين العروبة والإسلام

ان الصلة بين الاسلام على انه رسالة ونظام شامل للحياة وبين العرب نوضحها بايجاز في الامور التالية وسنعود الى بيانها في بعض مباحث هذا الكتاب :

١ ـ ان الاسلام وحد مفاهيم الامة العربية ونظرتها الى الوجود ومقاييسها الاخلاقية ، فنقلها بذلك من وحدة الارض والدم الى وحدة العقيدة والفكر ، فأقام بذلك بينها انسجاما فكريا وروحيا وجعل لها فلسفة شاملة للحياة .

واذا كان لكل امة صيغة لحضارتها فقد كان الاسلام بالنسبة الى العرب هو الصيغة التي قبلوها للحضارة ، وذلك لا يمنع ان يشاركهم فيها غيرهم ممن قبل هذه الحضارة وآمن بمبادئها من الامم الاخرى .

٢ ـ ان الاسلام ، وان كان دينا إلهيا ووحيا سماويا انما ظهر في بلاد العرب ، وبشر به رسول منهم ، ونزل وحيه وسطر كتابه بلغتهم ، وهم اول من تولى تبليغه وتفهيمه للناس ، وهذه مزايا خاصة به من بين المذاهب الدينية والفلسفية ، ومزية خاصة بالعرب بالنسبة الى سائر الشعوب الاسلامية .

٣ ـ ان الاسلام جعل للعرب في الحياة رسالة ذات مثل عليا واتجاهات انسانية وقيم خلقية ، ولم تكن كذلك حضارات العرب من قبله .

وقد نقلهم الاسلام من المرحلة الانعزالية الى المرحلة الانسانية ، ومن الصعيد القبلي والاقليمي الى الصعيد العالمي .

٤ ـ لقد كان بين العرب ومبادىء الاسلام تجاوب خاص واتصال صميمي ، وذلك مما يدل على حكمة اختيار الله للعرب للتبشير بهذه الرسالة . كما ان بينهم وبينه تلازما تاريخيا طويلا وارتباطا مكانيا ووحدة في المصير ؛ فقد كان كما قال الاستاذ ساطع الحصري قوة دافعة بالنسبة اليهم و قوة واقية كذلك [1] ، فهو الذي دفعهم الى الانطلاق الى العالم لتحريره من الظلم والضلال والجهل ، فامتدوا في الارض وانتشروا في اطرافها ، وهو الذي حفظ تماسكهم ولغتهم واخلاقهم .

٥ ـ لقد جعل الاسلام العرب مركز اشعاع ومصدر هداية ، وجعل بيدهم قيادة شعوب اشتركت معهم في الايمان بمثله العليا وعقائده ومبادئه ، القيادة الثقافية على الاقل ، بل القيادة السياسية أيضا ، فهو امتداد ثقافي لشخصيتهم ، والصعيد المشترك بينهم وبين الشعوب التي قبلت الاسلام وحضارته .

٦ ـ يؤلف الاسلام اضخم جزء من تاريخهم ، وهو اكبر قوة معنوية يملكونها ، والعنصر الاساسي في ثقافتهم ، ولذلك كان فصله عنهم أو فصلهم عنه افقار واضعاف لهم ومناصرة للغزو الاجنبي لهم ، وتفريغ لمحتوى حضارتهم ، واستئصال لمفاهيمهم ، وفسح المجال امام الشعوبيات الاجنبية لتترعرع على حسابهم ؛ وفي ذلك خسارة لا يرجع ضررها عليهم وحدهم بل على الانسانية جميعا .

ولئن كان الاسلام بالنسبة للمسلم دينه وعقيدته ، فهو بالنسبة

(١) ساطع الحصري (ما هي القومية) ؟ الفصل الاخير .

للعربي المسيحي تراثه القومي ومادة ثقافتـه . ومن حسن الحظ ان الاسلام نفسه فسح المجال للنصرانية لتعيش معـه والى جنبه ، وحمى مقدساتها ومعتنقيها ، وصان معابدها ، وجعل بينه وبينها صعيدا مشتركا يتلخص في اعتبارها دينا سماويا مصدره وحي إلهي ، وفي وحـدة الاسس الاعتقادية الجوهرية وفي أن المسيح كلمة الله وروح منه ، وانه ولـد من ام عذراء طاهـرة بتول من غـير أب . وان أقرب النـاس « مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى » ، وان في انتصار الروم ، وهم نصارى ، حينما انتصروا على الفرس ، وكانوا يومئذ وثنيين ، نصرا يفرح به المؤمنون .

ان نصارى العرب كانوا وما زالوا جزءا من أمتهم . ولئن وصلتهم بدين ابن مريم صلوات الله عليه أسباب ، فان لهم بالاسلام كذلك صلة وشيجة ، فهو تراثهم القومي . من خلاله نظرت امتهم الى العالم ، وعلى أساسه بنت حضارة بل حضارات ؛ وهو مادة ثقافتهم ، وفي صفحات تاريخه مفاخر امتهم ؛ ومعاذ الله ان يتنكروا لعروبتهم وامتهم . ولنا الى هذا الموضوع عودة في شيء من التفصيل في فصول هذا الكتاب .

التيّارات الفكريّة

في البلادِ العربيّةِ

ان وجود كل امة من الامم وارتقاءها يتوقفان على وجود حد ادنى ، لا بد منه ، من الانسجام والوحدة بين أفرادها ، في افكارهم وعقائدهم وقواعد سلوكهم ، والا فان قواها المادية والمعنوية بدلا من ان تعمل متعاونة متساندة للتقدم الى الامام في جميع المجالات ، يتسلط بعضها على بعض فتتعارض ، وفي هذه الحالة إما ان تبقى في حالة المسالمة ، ولكن على أساس التوازن المبني على الحذر المتقابل ، وإما ان تتهاتر وتتنابذ وتعمل ولكن للتصارع بينها ، تصارعا يبدأ بالتنافس وينتهي بأشد أنواع الصراع ، كما حدث مراراً في الهند ما بين المسلمين والهنادك لانعدام حد ادنى من الانسجام والاشتراك بينهم .

ولو نظرنا الى الامة العربية ، التي يمتد شعبها ما بين البحر الهادي وحدود ايران ومن ساحل البحر العربي الى جبال طوروس على حدود تركيا ، لوجدنا ان بين أبناء هذا الشعب حداً ادنى من الوحدة والاشتراك والانسجام ، على اختلاف مستوى الثقافةوالعقائد الدينية وطراز المعيشة، وذلك في العقائد والافكار والمبادىء والمثل والاخلاق والعادات ، ولكن المهم الاحتفاظ بهذا الحد الادنى المشترك ، بل توسيعه وزيادته ، فان الارتقاء وسرعته متوقفان على ازدياد نسبة الانسجام وقوة التماسك والتمازج ، والا فقد يتعرض هذا الحد الادنى في بعض الاقاليم العربية للخطر ، اذا ظهر من العوامل ما يضعفه ويقلله ، واذا قوي الشذوذ والانحراف في اتجاه من الاتجاهات الصائبة الخارجة .

ان هذا الحد الادنى من الانسجام في البلاد العربية ، حتى فيحالته

الحاضرة ، يفوق الحد الادنى الموجود في كثير من الامم الراقية ؛ ولكن الوقوف عنده جمود يعوق الحركة ويمنع السرعة ويحول بين الامة العربية وأهدافها . وان الاحتفاظ بهذا الانسجام القائم وزيادته ، يقتضيان النظر في العوامل المؤدية الى الانسجام ، فان زيادتها وقوتها تؤدي الى قوته وازدياده ، وضعفها يؤدى الى ضعفه .

واذا تركنا هذا الحد الادنى المشترك من الانسجام القائم بين جميع البلاد العربية ، ونظرنا الى مختلف الاقاليم والبلدان العربية ، وجدنا ان قوته تختلف من بلد الى بلد ، ونسبته تتفاوت بين الاقاليم العربية . وذلك لان بعضها متفقة اتفاقا كاملا من جميع النواحي وجميع العوامل الاجتماعية المؤثرة في تكوينها تتظاهر وتتساند في اتجاه واحد . فلو نظرنا الى نجد مثلا لوجدنا أن أهلها كلهم من أصل عربي ، ومن عقيدة واحدة ، بل مذهب فقهي واحد ، فكلهم مسلمون سنيون حنابلة ، وثقافتهم واحدة وهي الثقافة العربية الاسلامية ، وطريقة تعليمها هي الطريقة القديمة ؛ ومدى تأثرهم بالحضارة الحديثة واحد كذلك . ولو نظرنا الى المغرب ، من ليبيا الى المملكة المغربية ، لوجدنا أنه يأتي في درجة مقاربة ، فان جمهرة أهله عرب أو مستعربون ، ولكن بينهم فريقا لم يتم استعرابه الا من ناحية الدين والعقيدة وأكثر قواعد الاخلاق ، ولا تزال لبعضهم لغة خاصة (القبايلية) . وأهل المغرب على الاطلاق مسلمون سنيون على المذهب المالكي ، لا يستثنى من ذلك الا قليل من الاباضية في جنوب الجزائر وفي تونس . ولو أخذنا مثال سورية الطبيعية أو بلاد الشام ، لوجدنا انها تعطينا مثالا من نوع آخر ، فان بين أهلها **حداً من الوحدة والانسجام** يتكون من جماع مبادىء الدينين الاسلام والنصرانية ، ومن الصعيد المشترك بينهما المتكون من مبادىء الاعتقاد بالله وبالنبوات والمسؤولية

في حياة اخرى ، ومن قواعد للسلوك الاخلاقي في الاستقامة وحسن المعاملة والبعد عن الرذائل واكتساب الفضائل مما يدعو اليه الديانان . ويتكون كذلك من عامل آخر ، هو ان **جمهرة السكان عرب أو مستعربون** من قرون بعيدة قبل ظهور الاسلام وبعده .

واما الاقليات القومية فهي ، عدا قلة عددها ، منصهرة في الثقافة العربية ، وتشترك في عقيدتها الدينية وعاداتها إما مع المسلمين فتنصهر فيهم وتعمل في اطارهم ، أو مع المسيحيين فتنصهر كذلك في المجتمع العام عن طريقهم وتعمل في اطارهم وضمن نطاقهم . وبذلك تعود هذه الاقليات القومية سواء اكانت مسلمة أم مسيحية الى الحد الادنى المشترك بين أهل البلاد ، وبين أبناء الدينين الكتابيين اللذين يصل بينهما تاريخ طويل ونظرات مشتركة . وتزيد الاقليات القومية المسلمة على ذلك ان الثقافة العربية تكون جزءً من عقيدتها أو من ثقافتها الدينية .

وعلى هذا **فالثقافة العربيـة** ، على اختلاف طريقة تلقينها وفهمها ، هي الثقافة الجامعة بين هؤلاء جميعا من العرب المسلمين والمسيحيين والاقليات القومية المسلمة أو المسيحية ، على تفاوت بين بيئاتهم في نسبة الاخذ منها والتأثر بقيمها والايمان بمثلها عمقا واتساعا .

وعامل ثالث له أثره في تكوين هذا الحد من الانسجام الاجتماعي بين أبناء بلاد الشام أو سورية الطبيعية ، وهو **تأثر الجميع بالثقافة الحديثة** المنقولة أو المقتبسة عن الغرب ، على تفاوت بينهم كذلك في أخـذها مباشرة من مصادرها ومعاهدها في داخل البلاد أو خارجها ، أو أخذها بطريقة غير مباشرة عن طريق تمثلها ونقلها الى الثقافة العربية ؛ وفي نسبة

التأثر بها تأثرا قد يقتصر على الاطلاع عليها وعلى أساليبها وآفاقها ، وقد يتجاوز ذلك الى الاخذ بمفاهيمها ومذاهبها • وعلى كل حال ان ثمة نصيبا تشترك في الاخذ به الطبقة المثقفة من ابناء هذا البلد هو في الواقع من عوامل الانسجام الى حد ما بين أفراد هذه الطبقة على الخصوص • ويقابل ذلك تأثر جمهور الشعب من أبنائه بالحياة الاجتماعية الحديثة ، وأخذهم بوسائلها بنسبة متقاربة • ونستطيع ان نقول ان جمهرة الشعب في جميع البلاد العربية متشابهة متقاربة في تفكيرها ومعتقداتها ومبادئها ومثلها ومفاهيمها والقيم التي تؤمن بها • ولكن الطبقة المثقفة ــ بسبب اختلافها في التأثر بمختلف العوامل اختلافا كبيرا أحيانا، ونمو بعض هذه العوامل على حساب العوامل الاخرى ، ولا سيما في الاقاليم التي لا يكون الانسجام فيها تاما قويا يتجاوز الحد الادنى ــ قد تولدت فيها تيارات فكرية واعتقادية متباينة تباينا قليلا أحيانا وكبيرا أحيانا أخرى •

ونستطيع أن نقسم هذه التيارات الفكرية الى قسمين كبيرين **اصيلة ، وشعوبية :**

اما الشعوبية منها ، فتتجلى في كل نزعة تسعى الى الكيد للعرب وتضمر الحقد عليهم ، أو على الاقل تستند الى شعور المباينة والمغايرة في داخل المجتمع العربي ، ويدفعها هذا الشعور الى اظهار هذه المباينة والعمل على الانفصال ، وعلى ازالة أسباب المغايرة لا بالاندماج والانصهار في البيئة العربية ، بل بتحويل البيئة العربية عن ذاتيتها وخصائصها أو أرضها وتشويهها أو تشتيتها أو اذابتها • وتظهر هذه الشعوبية في تيارات مختلفة فيما بينها ولكنها تلتقي في هذا الهدف وتختلف وسائلها وطرقها للوصول اليه فمن هذه الوسائل :

١ ـ تجزئة البلاد العربية وفصل اقليم من اقاليمها عنها ، والدعوة لجعله وحدة تامة كاملة في أرضه وسكانه ، وادعاء ان سكانه يؤلفون امة تامة غير العربية ، واقامة سياسة انفصالية على هذا الاساس ؛ ومن هذا القبيل النزعة الفرعونية والقومية السورية .

وتلمح هذه الفكرة بوضوح تام في تعبير الجمهورية العراقية الخالدة ، فلا تفهم صفة الخلود المزورة هنا الا على أساس استمرار العراق في اقليمية دائمة منفصلة عن الكيان العربي !

ان أمثال هذه النزعات الشعوبية المصطنعة تخالف الواقع والتاريخ، وتعارض الاتجاه الحقيقي للشعب الذي يسكن هذه الاقاليم نفسها ، وانما تؤيدها دوافع خارجية استعمارية ، وتنسجم كل الانسجام مع الفكرة الصهيونية في فلسفتها وفي مصلحتها .

٢ ـ أما الوسيلة الثانية التي تتذرع بها الشعوبية والسبيل الاخرى التي تسلكها ، فهي اذابة العرب في بوتقة كبيرة وكتلة واسعة لا قيمة لهم فيها ولا تتصل بهم بسبب ولا يكون مكانها فيها مكان التوجيه أو القيادة ولا تمت الى حضارتهم أو عقائدهم بصلة ، بل يكونوا فيها الموجَّهين المقودين التابعين ؛ وتلك هي خطة الشيوعية والشيوعيين ، وتكون نتيجة هذه الطريقة قتل الشخصية العربية وطمس معالمها وفصل العرب عن عالم يحتلون منه مكان القيادة والتوجيه وينشرون فيه حضارتهم والقيم الانسانية التي آمنوا بها ، ويقفون فيه موقف الامام المتبوع والمعلم الهادي . وبهذه الوسيلة الشعوبية ترتبط الامة العربية من جهة شخصيتها المادية في أرضها وسكانها ، ومن جهة شخصيتها المعنوية بارض وشعوب وحضارة ليست هي منها في شيء .

٣ ـ اما السبيل الثالثة التي تسلكها الشعوبية ، فهي تجزئة الشخصية العربية بدلا من تجزئة الارض فان تجزئة الارض ظاهرة لا تخفى ، أما التجزئة المعنوية ـ وامرها اخفى وأدق ـ فتكون بفصل العرب عن تاريخهم وحضارتهم ، وتجريدهم من مثلهم ومبادئهم ، بصياغة فلسفة خاصة لقوميتهم تجافي روحهم وتقطع الصلة بماضيهم وتقيم بين حاضرهم وماضيهم حواجز لا تخترق ، فتفصل شخصيتهم الحاضرة فصلا تاما ، أو يكاد يكون كذلك ، عن شخصيتهم التاريخية حتى في أشكالها الصافية وصورها الزاهرة . فتقيم من فلسفة فيخته ونيتشه ومازيني ، أو من فلسفة الوجوديين ، أو غير ذلك من الفلسفات الشاملة والمذاهب المحيطة ، فلسفة يقدمونها للامة العربية لتستبدلها بفلسفتها الاصيلة واتجاهاتها الفكرية ومفاهيمها الاعتقادية وعقائدها الدينية ! وسواء بعد ذلك أتخذت هذه الشعوبية شكل مذهب فلسفي يعلن عن نفسه ، ويكشف بصراحة عن اسمه ، أم تسترت بستار القومية نفسها وتدثرت بدثار العربية فالمهم بالنسبة اليها على كل حال صرف العرب عن طريقهم واخراجهم عن ذاتهم واقصاؤهم عن رسالتهم وتاريخهم .

ذلك ان هدف الشعوبية بالجملة منع العرب من الوصول الى وحدتهم المادية بتوحيد الشعب والارض في كيان واحد ، أو الى وحدتهم المعنوية وانسجامهم الفكري والخلقي المستمدين من تراثهم المشترك واتجاهاتهم العميقة وحضارتهم وروحهم الاصيلة وعقائدهم .

اما النزعة الاصيلة ، فهي تلك التي تستمد جذورها من الداخل من حاضر الامة العربية وماضيها ، من اتجاهاتها الاصيلة الانسانية وحضارتها ومثلها العليا وقيمها الخالدة ، والتي تستند الى مقومات الامة العربية

والعوامل المؤثرة في تكوينها وان اختلفت في الاستناد بوجه خاص الى أحد هذه العوامل وابرازه أكثر من غيره . سواء أكانت في حركتها جامدة أم مجددة ، محافظة شديدة المحافظة أو تطورية متعجلة في تقدمها، فهي على كل حال داخلية لا تتجرد من صفة الأصالة ، ولكنها قد تصيب وتخطىء ، وتبطىء وتسرع ، وتسير على الجادة أو تنحرف قليلاً ثم تعود.

وهذه النزعة الاصيلة تتجلى في تيارات كثيرة ، تجتمع كلها تحت أحد عنوانين ، وتتصف باحدى صفتين . فتعلن بحسب العنصر الاساسي الذي تبرزه وترجّحه أنها **عربية** او **اسلامية** ، وكلا الوصفين **هو لون طبيعي** لهذه الامة العربية ، **ونبع اصيل** في أرضها يمتد في تاريخ الامة عرقا يصل منها الى الجذور والاعماق ، وهو وصف جوهري ليس بعارض ، وأصيل غير دخيل وان استحال اللون أحيانا وتغير أو غشيه من الخارج ما غشيه أو شابته بعض الشوائب .

اما احد الوصفين فينظر الى عنصر الاصل والجنس ، أو الى الثقافة بلغتها ومفاهيمها ، أو الى أرض الوطن العربي ومن عليها من سكان متجانسين خلال عصور متطاولة . أما **الوصف الثاني** فيشير الى رسالة في الحياة كانت بالنسبة الى العرب أوسع مما اصطلح الناس على تسميته ديناً ، فقد ظهرت فيهم وبلغتهم وحملها منهم من تجمعت فيه خصالهم وتجسدت فضائلهم مبرأة من المساوىء والغلو والاسراف ، فكان ظهورها فيهم سبب وحدتهم المادية والمعنوية لأول مرة في تاريخهم ، وحدثا عظيما في تاريخ العالم تم بقضاء من الله على أيديهم فنسبت اليهم آثاره ، وكرمت من اجله حضارتهم .

ان هذين الاسمين أو الوصفين لا يمثلان تيارين متباينين ، ولكنهما

في الحقيقة يمثلان تيارات كثيرة ، ويؤلفان مدرجا من الالوان العديدة المتداخلة التي تبدأ من العنصرية العربية ، وتنتهي في الفكرة الاسلامية المجردة ؛ وبينهما الوان كثيرة متتابعة .

ومن الطريف في هذا الموضوع ، مما يستدعي التأمل في واقع موجود وحقيقة قائمة ، ان هذين الوصفين ليسا موضوعين موضع التقابل ، فضلا عن التعارض ، مع أنهما مفهومان متغايران وليسامترادفين، وهما في بعض هذه البلاد مطروحان على الناس على انهما متقابلان ، بل متعارضان لابد من اختيار أحدهما . ولكل من العنوانين أو الوصفين أنصار ، وبين الفريقين نقاش حاد في ترجيح أحدهما ، وفي اتخاذهرابطة أساسية وقاعدة لبناء المجتمع .

ان هذا الوضع القائم في بعض البلاد العربية ناشيء عن عوامل متعددة ، منها ما آل اليه الاسلام من ضيق في المفاهيم ، وتشوه في القيم في اذهان المسلمين وحياتهم العملية وفي نفوس غيرهم كذلك في عصور الانحطاط العثماني .

ومنها الشعور الموروث المتكون في المجتمعات المغلقة ، والذي هو شعور بالحذر بالنسبة الى المجتمع العام ، وشعور بالانتماء الى مجتمع ضيق خاص منفصل عن المجتمع العام ؛ وذلك بنتيجة ظروف تاريخية ماضية ابقت رواسب كان لها أثرها في الحياة الحاضرة .

أضف الى هذين العاملين دخول مفاهيم اجنبية غريبة عن المجتمع العربي ، من خلالها نظر بعض المثقفين الى قضايا مجتمعهم فاحلوها محل المفاهيم الغربية للحياة ، واتخذوها مقاييس لحل مشكلاتهم ، فاستعجم العقل العربي في هذه المرحلة الجديدة في هذه البلاد العربية .

وسنتعرض بالنقد والتحليل لهذين التيارين الكبيرين في صيغتيهما المتباعدتين في أحد الفصول التالية من هذا الكتاب .

ونستطيع ان نقول منذ الآن ان تشعب النزعة الاصيلة الداخلية في البلاد العربية ، أو في بعضها الى تيارين متباعدين أو متعارضين ، يفسح المجال واسعاً للنزعة الشعوبية ، ويفتح الثغر التي تنفذ منها الى الامة العربية . وان الخير كل الخير للامة العربية ولما تحميه من قيم روحية ، ومثل عليا في الديانات السماوية التي بقيت حية في ربوعها ، بل للانسانية جمعاء ، ان يتقارب التياران ولو لم يتوحدا ، وان يلتقي طرفاهما ، وان يتكون صعيد واسع يلتقيان عليه ، وهما في الواقع ملتقيان في جانبهما الانسي ، وان كانا متباعدين في الجانب الوحشي منهما . فالافكار أو الاهداف المشتركة بينهما حالياً هي :

١ ـ تحرير البلاد العربية من الاجنبي ونفوذه .

٢ ـ توحيد البلاد العربية في كيان واحد .

٣ ـ اعتبار الاسلام تراثاً تاريخياً للامة العربية ، وعنصرا أساسياً من عناصر تكوينها التاريخي يمكن أن نستوحي من تاريخه في بناء حاضرنا .

٤ ـ حرية الافراد في معتقداتهم الدينية ، وممارسة شعائرها وليس ثمة اختلاف أساسي بين السائرين تحت هذين العنوانين الكبيرين ، الا في قضية واحدة كبرى وهي :

اتخاذ الاسلام اساساً في تنظيم المجتمع الحاضر أو عدم اتخاذه . واعتبار رابطته هي الرابطة الاساسية في تكوين المجتمع أو عدم اعتبارها كذلك .

ان الجمهرة الكبرى من المناصرين لكلا التيارين أصبحت متفقة على أن تقوم دولة عربية واحدة ، يعيش فيها بأمن وحرية أبناء العروبة أو المنتمون الى الثقافة العربية من أبناء الدينين الكتابيين الاسلام والنصرانية على انهم مواطنون في هذه الدولة من العرب ، وممن أخذوا بثقافتهم ومثلهم في الحياة وشاركوهم في أهدافهم وفي الدفاع عنها . وترسي هذه الدولة مجتمعها على أسس مادية وروحية في آن واحد ، وتراث الدينين المتضمن أعظم ما جاءت به الاديان من قيم روحية وخلقية ، هو الاساس الروحي لها . والاسلام ، بغض النظر عن كونه دين القسم الاكبر من الشعب العربي ، هو تراث الامة العربية القومي ، من روحه واتجاهاته العامة تستمد مثلها ومبادىء تشريعها .

وانك لتجد اليوم كتّاباً ومفكرين يلتقون في هذه الساحة المشتركة من مسلمين ومسيحيين ؛ فلم يعد التحدث عن الاسلام عصبية طائفية ، الا عند فئة ضئيلة لم تستطع ان تتحرر من ضيق الافق أو الهوى الغالب أو المصلحة الخاصة . فمن يستطيع ان يتهم الشاعر القروي بالتعصب الطائفي للاسلام حين يقول :

عش للعروبة هاتفا بحياتها ودوامها
وامدد يمين الحب يا لبنانها لشآمها
انظر الى آثارها تنبئك عن أيامها
هذا التراث يمتّ مع ظمه الى اسلامها

أو يقول :

اتجف أوراق العروبة في ربى لبنان وهي نضيرة في يذبل
أتريد أعظم من أبي بكر ومن عمر اذا انتسب الكرام ومن علي

أو في قوله :

انا العروبة لي في كل مملكة انجيل حب ولي قرآن انعام
سل عهد شامي وبغدادي واندلسي عن عمق فلسفتي عن عدل احكامي

. . .

شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت عروبتي مَثَلي الأعلى واسلامي
وشامت بيَ مسرور بحزنيَ مس تشف بدائيَ ملتذ بآلامي
قولوا له عرباً تقضوا عليه فإن يَسلَم فثنوا بقرآن واسلام

أوَليس ينهل كاتب عربي مسيحي كالدكتور اديب نصور من ينبوع الدينين حين يقول :

مشكلتنا أعمق بكثير من السياسة والاقتصاد ، هي مشكلة امة فقدت مُثلاً قديمة كانت القوى الفعالة في حياتها ولم تجد مُثلا اخرى تتفق عليها ، وإني أعتقد ان العمل الجديد يجب ان يكون اخلاقيا روحيا قبل كل شيء . ويختم كلامه هذا بقوله : ان دعوتي ليست أقل ولا أكثر من العودة الى الله ، ولله المثل الاعلى كما جاء في القرآن الكريم وله المثل الأعلى في السموات والارض [1] .

أوَليس يرجع الدكتور نصور الى مبادىء الاسلام يستوحيها مبادىء تكون أساساً للحكم الحاضر في البلاد العربية حين يقول : « لكن في مبادىء الاسلام كما وردت في القرآن الكريم والسنة وفي تقاليد الصدر الاول من الاسلام ما يصلح أساساً نظرياً ونواة عملية لحكم نيابي ديمقراطي . فهناك مبدأ الشورى وبيعة أهل الحل والعقد ... وأعتقد انه من الخير ان نؤلف جسرا بين الديمقراطية الحديثة وبين تجربة ذلك الصدر من الاسلام .

(١) قبل فوات الاوان ص ٩٢ ـ ٩٤

ويقول أيضاً جامعا بين تراث الدينين :

لكني أومن ايماناً أكيدا راسخا بأن العالم لم يصلح قط بالكيد والدهاء ، وإنا لا نستطيع ان نبني المدنية الفاضلة بدون إله وان أمورنا لا يمكن ان تستقيم بمجرد اصدار تشريعات ومراسيم وبلاغات ...

يجب ان نذكر دائما انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، وان الانسان ليس حيواناً اقتصادياً هين الشأن . الانسان كائن روحي ...

ونحن في هذا الشرق العربي ينبغي أن لا تتنكر لعبقرية الشرق ؛ ففي هذا الشرق القريب جرى اتصال عجيب بين الارض والسماء ، بين عالم المادة وعالم الروح . وقامت الدعوات الانسانية الكبرى ، وخرج انبل الرجال ، ومن يدري فقد يأتي الحل الاخير من هذا الشرق مرة اخرى لينقذ انسانية معذبة حائرة[1] » .

ولعل القارىء يجد في الفصول التالية من كتابنا ، كلمة الفصل بين الفريقين ، أو بين الفئات التي ترجع كلها الى نزعة داخلية فتستبين له المحجة بين مختلف الانحرافات الآخذة ذات اليمين وذات الشمال . وقد حاولنا فيها الايجاز مع دقة الهدف ووضوح الغاية وبذل الجهد لاصابة المفصل في كبرى قضايانا ومشكلاتنا الفكرية . وعسى ان تتاح لنا الفرصة لبسط ما أجملنا وتفصيل ما أوجزنا ، بعد ان نرسم الخطوط الكبرى لشخصية أمتنا والعناصر الخالدة من تراثنا ومعالم الطريق لمسيرنا نحو هدفناوهدف الانسانية البعيد .

---

(١) قبل فوات الاوان ص ١٩٧

القسم الثاني

الأمة العربية ورسالتها

ألقي هذا الموضوع في قاعة المحاضرات
في كلية التربية والتعليم بطرابلس في
شهر آذار ١٩٥٨

أرى من الافضل ان نقف من زاوية نشرف منها على العالم ، وفي صعيد أوسع أفقا من الصعيد القومي المغلق لنستطيع ان نرى أنفسنا وغيرنا في آن واحد ، فتكون لنا نظرة واسعة غير ضيقة ومجردة غير شخصية ويكون حكمنا بالتالي صحيحا ورأينا سديدا .

لننظر في هذا العالم الحديث ، هل فيه وفي حضارته نقص يحتاج الى اكمال ، وفراغ يعوزه من يسده ؟ هل في هذا العالم ، الذي غدا مصطرعا للمذاهب والعقائد وللكتل التي تنضوي تحت لوائها شعوب ودول ، ولمختلف الانظمة السياسية والاقتصادية ، مكان لأمة تدخل حلبة الصراع فتغير وجه المعركة بمساهمتها وتعدل خط المسير وهدف التطور في حضارة هذا العصر ؟ وهل تختلف الامم في نوع المساهمةالتي تقدمها وتتفاوت في خصائصها وتتفاضل في عبقرياتها ؟ واذا كان جواب ذلك كله ايجابيا ، فهل امام الامة العربية مجال للعمل في الميدان العالمي، ومكان تستطيع ان تحتله ، وفرصة للمساهمة في اكمال النقص وسد الفراغ ؟ .

ان في العالم اليوم فريقين من الامم والشعوب ، يشمل احدهما الشعوب الواقعة في هذه الرقعة من الارض ما بين روسيا وامريكا ، ويشمل الآخر شعوب آسيا وافريقيا . **اما العالم الاول** ، وهو الغربي بالنسبة الى موقعه من بلادنا العربية ، وان كان بالنسبة الى اجزائه بعضها من بعض ينقسم الى شرق وغرب ، فتقوم على ارضه حضارة أو حضارات مختلفة الالوان ولكنها تشترك في الكثير من صفاتها وخصائصها وتلتقي

في الاعماق وان اتفصلت في السطوح : ان هذه الحضارة أو الحضارات الغربية الحديثة أصبحت بالنسبة الى شعوب العالم مطمح الانفس وغاية الآمال وموضوع الاسوة والاقتداء ، ويلمع في آفاقها العيش الرغيد ولذة النعيم والصناعة الكبرى والانتاج الضخم والسرعة الفائقة والتنظيم الاجتماعي والاكتشافات العلمية والمخترعات العملية والجيوش الجرارة والوسائل العجيبة والاسلحة الخارقة ؛ ومن وراء ذلك أثرة غالبة وشهوة جامحة وصراع بين الطبقات وتنازع بين الشعوب والامم ، مظهره سلب واغتصاب واستئثار واستعمار وتنافس في الفتك وتزاحم في الاسواق وتطاحن على النفوذ في البلاد والآفاق ؛ ويستخدم من أجل هذه الاغراض العلم الذي غايته في الاصل الحقيقة المجردة ، والحكم الذي هـدفه العدالة ، حتى الدين الذي رسالته تطهير النفس والسمو بالروح . لقد قلبت هذه الحضارة الغربية الغايات فجعلتها وسائل ، والوسائل فأحلتها محل الغايات . فالحقيقة العلمية ، ليست الا وسيلة لتكثير المال والتغلب على الخصم بالحق وبالباطل وازهاق الارواح وتدمير العمران . والفضيلة تستباح في سبيل كسب الجولة في معركة غايتها الاستيلاء على البلاد أو الاموال . والحريةتزهق بحجة التنظيمورفع الظلم . والتبشير يستخدم لافي سبيل تحرير البشر من استعباد بعضهم لبعض باخضاعهم لله وحده بل في سبيل اخضاع شعب لشعب . لقد ارتقت في هـذه الحضارة الوسائل ولم ترتق الغايات ، وغلبت الاطماع والشهوات والانانيـة الفرديةوالجماعية ــ وهي أقبحوافتك ــ والاعتبارات الماديةوالاقتصادية، كل هذه غلبت المثل العليا والاعتبارات الخلقية والقيم الروحية والمبادىء الانسانية ؛ وساد مبدأ القوة وأصبح التقدم العلمي والانتاج الصناعي وسيلة لاتساع دائرة الاستعمار في العالم واستشراء الشهوة الآثرة في

الفرد ؛ وما تبع ذلك من ظلم الانسان للانسان وكثرة الغصب والسلب والاكراه والتعـذيب وبسط النفوذ والضغط على الحريات وتقاذفت الغرب مذاهب متعارضة يتردى فيها ، ما بين فوضى الحرية المؤدية الى الاستغلال والاستئثار ؛ والتنظيم الآلي الذي يفقد الشخصية الانسانية حريتها وكرامتها ويؤدى الى الجماعية الطاغية • وتدور هذه المذاهب على اختلافها على محور مادي ولا تخفي ذلك بل تعلنه في اسمائها المتقابلة وعناوينها المتعارضة •

لقد نجح الغرب في تقدم الجانب المادي من الحضارة ، من ناحيتيها العلمية والعملية ، ولكنه أخفق في محاولته لتقدم الحضارة الانسانية وفي توسيع دائرة الانسانية في الفرد والجماعة وفي ترقية الجانب الخلقي والروحي من الانسان وتوسيع دائرة التعاون وتضييق دائرة التنافس والتصارع وفي تغليب الاعتبارات الخلقية والانسانية •

ان الاوروبي والامريكي لم يستطع أن يخرج من دائرته الخاصة ليكون انسانا وليبشر خارج بلاده بالانسانية ومبادئها ، لقد بقي أنانيا انطوانيا ولم يستطع أن يرتقي الى الصعيد الانساني •

ان العالم ينتظر حلا لمشكلته الانسانية ، بل لمأساة الحضارة التي سارت في طريق غير نافذ • ان شعورا بالقلق يستحوذ عليه ، شعورا بالنقص والجدب والاقفار ، انه يتلظى في سعير حياة مادية لا أثر فيها لنفحة الروح تهب من وراء هذا الكون المادي لتخفف أثر هذا السوط الملهب الذي يسوقه كلما وقف نحو الهاوية والجحيم ، لقد قطع ما بينه وبين الله من أسباب فانقلب حيوانا مفكرا لا أنسانا واعيا وروحا ساميا •

ان حضارة الغرب كله حضارة مادية وثنية في روحها وأهدافها في

وسائلها وغاياتها . وان رسالة الروح التي جاءت بها المسيحية السمحة وبشّر بها ابن مريم عليه السلام لم تعد مفهومة في الغرب ؛ لقد تدثر الغرب بدثارها وتلبس بشعارها وتدرع بمسوحها لكنه أزهق روحها وبدل جوهرها وشوه جمالها ، فليس له منها الاّ الاسماء والمظاهر والاشكال والمراسم . وطارت روح المسيح عليه السلام محلقة مبتعدة مترفعة عن مشاهد الشهوات الملتهبة والعداوات المتأججة والعصبيات الثائرة والمادية الطاغية الجاحدة والاستعمار المتسم بروح التمرد على الوهية الخالق والكفر بنعمه وآلائه ؛ ولن تجدى شيئاً تلك الصيحات التي تظهر بين حين وآخر من أعماق بعض النفوس التي هبت فيها نسمة من المثل العليا ونفحة من الروح ، ولا تلك التيارات الانسانية والخلقية، فإن أعصار المادية لا يبقي ولا يذر وموجتها طاغية غالبة ! .

لقد استطاع ابن الغرب أن يحرر الانسان الى حد كبير من سلطان الطبيعة وهيمنتها ، ولكنه لم يستطع أن يحرر الانسان من طغيانه ، طغيان الغرائز والشهوات في الفرد ، وطغيان الطبقات بعضها على بعض ، وطغيان الشعوب والامم بعضها على بعض . ان العالم بحاجة الى حضارة جديدة والى مفهوم جديد للانسان والانسانية والى قيادة انسانية لتقضي على الانانية (الاثرة) المادية والطبقية المستأثرة والاستعمار الجشع، ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها .

ذلكم هو الشطر الاول من العالم . **أما الشطر الثاني** ، فيتألف من شعوب تحرر بعضها من أمد قريب من الاستعمار ونهض وجدّ في انشاء نفسه وتشييد دولته وتكوين مجتمعه ، ولا يزال بعضها الآخر يدفع عن نفسه ثقل الاستعمار المنيخ بكلكله عليه أو يسعى لازاحة ما تبقى من

النفوذ الاجنبي المسيطر عليه في شكل من الاشكال . هذه هي الشعوب التي تقع في آسيا وافريقيا والتي تتوالى مواكب شعوبها موكبا بعد موكب في أعراس الحرية ومهرجانات التحرر ، والتي كان مؤتمر باندونغ ومؤتمر التضامن الآسيوي الافريقي مظهرا من مظاهر نهوضها وتحررها وتطلعها لاحتلال مكانها والمساهمة بما تستطيع في ميدان العمل العالمي.

اليس من الحق ، بعد ان رأينا اخفاق حضارة الغرب ، ان نبحث لدى هذه الشعوب عن أساس جديد للحضارة ؟ لحل مشكلة الانسانية واقامة مجتمع انساني عالمي يسود فيه السلم وتتعاون فيه القوميات وترتفع فيه الاعتبارات الخلقية على الاعتبارات المادية الاقتصادية ، ويكون فيه للروح انطلاق كما كان للمادة في حضارة المادة انطلاق ، ويحل فيه مبدأ السلم والتعايش محل مبدأ القوة ، ويوصل ما بين الانسان وخالقه من أسباب ، كما وصل بين الانسان والطبيعة ، حتى تكون الحياة وحدة واتصالا وانطلاقا وتساميا .

ان بعض دول آسيا وافريقيا أصبح في نظامه وفلسفة حياته مقلدا لاحدى الحضارات الغربية ملتحقا باحدى كتلتي العالم الغربي فلا جديد يرجى عنده . وتتوجه اضواء التاريخ نحو أمتين من هذه الامم تقف كل واحدة منهما في طليعة مجموعة من الشعوب : **احداهما** الهند على رأس الشعوب الهندوكية والبـوذية . **وثانيهما** العرب ومن ورائهم وحولهم الشعوب الاسلامية . تحاول **الهند** بقوة وعزم أن تؤلف من العقلية الصناعية الغربية والروحانية الهندية مركبا حضاريا جديداً ، وعلى هذا الاساس تنادي الهند بمبدأ السلم والتعايش ، وتتعاون مع مختلف الشعوب والدول ذات الانظمة والمذاهب المتباينة ، وتسلك سياسة الحياد الايجابي . ولكن

التاريخ الطويل يدل على أن الروحانية الهندية لم تكن بناءة ولم تنسجم مع الحضارة المادية ولم يسبق للهند تجربة ناجحة في تاريخ الحضارة تجمع فيها بين العناصر العقليةوالمادية والروحية بانسجام وتوافقوتوازن.

اما الامة العربية ، فلها من سابقتها التاريخيـة وتجاربها الماضيـة وموقعها الممتاز بين الكتل البشرية والشعوب والمذاهب ومن التفافمئات الملايين من شعوب الارض حولها مسترشدين بهديها مقتفين أثرها مؤمنين في الحياة بفلسفتها ، ومن أسباب اخرى كثيرة ، ما يجعل كفتها الراجحة وحظهـا الأوفى **لاحتلال مكان القيادة وتمثل الانسانية بجميع عناصرها** ، والأخذ بيد المجموعة البشرية في منعطف جديد للتاريخ ، وملء الفراغ البادي في حضارة هذا العصر ، واقامة التوازن بين مادية الغرب الطاغية وروحانية الشرق السلبية لتكون منهما مادية خادمة وروحانية ايجابيـة فعـالة .

الامة العربية عبر التاريخ

لنطو القرون ولنرجع الى عهود العرب القديمة قبل الاسلام نجد أمة ــ على خلاف ما يظن كثير من الناس ــ تتميز عن نوعين من شعوب تلكم العصور :**نوع ابتدائي** لم يبلغ بعد درجة الوعي ولم يتجاوز بعد طفولته . **ونوع** كان يتردى في آفات الانحراف . **فالهنود** غارقون في روحانية بعيدة عن الحياة ووثنية ابتدائية ؛ **والفرس** في ملاذ الجسد واقطاعية المجتمع ؛ **والرومان** في طغيان الاستعمار ؛ **واليونان** في النظريات الفلسفية والاساطير الدينية . في ذلك الحين **كان العرب يتميزون :**

اولا ــ بنمو الجانب العقلي من حياتهم نموا سليما ، وارتفاع مستوى التفكير عندهم بالجمع بين **التفكير الواقعي** الملامس للحياة والطبيعة ،

البعيد عن الاساطير والخرافات ، **والتجريد** الضروري لارتقاء الفكر من الجزيئات الحسية الى الكليات المعنوية والنفسية ، كما تدل على ذلك الفاظ لغتهم الغنية بالمفردات الدالة على مفاهيم مجردة أو عامة كالخير والشر والحق والباطل والعدل والظلم والانسان والحيوان ، والعواطف كالود والرحمة والبر والمروءة ، وكما تدل على ذلك امثالهم وحكمهم أيضاً.

ثانيا ـ ويتميز العرب ـ قبل الاسلام ـ **بخلق** يعتبر القيم المعنوية، بل يجاهد لتحقيقها ، فمكارم الاخلاق والمروءة هي مناط المدح والذم والفخر والهجاء ، فالعربي لم يكن ماديا متهالكا على اللـذة ولا انانيا شهوانيا:

وليس الغنى الا غنى زين الفتى عشية يقري أو غداة ينيـل
وعرضي أُبقي ماادخرتُ ذخيرةً وبطنيَ أطويه كطيّ ردائيا
قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق وجيب قميصه مرقوع

وهو على قلة القوت في ارضه وشح الطبيعة فيها لا يبيع شرفـه ليأكل وليس الطعام والشراب غاية حياته ومبلغ همه حتى انه يفضل الجوع مع العزة على الشبع مع الذلة وتحمل المنة ، والموت مع الكرامة على الحياة مع الهوان :

فعش معدماً أو مت كريماً فانني أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه

وقال عنترة :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحيـاة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أكرم منزل

لقد كان العربي حيوياً فعالاً يفتش عن القوت ويضرب في الارض ابتغاء الرزق ولم يكن روحانيا انعزاليا . لقد كان واقعياً عملياً نزاعا الى

الحركة ولكنه في حيويته وواقعيته لم يكن مسفا ولا ماديا ، بل كان يتطلب ما هو اسمى من ذلك وأعلى :

ولو أن ما أسعى لادنى معيشة كفاني ولم اطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وليس المال غاية في الحياة ولا مستعبدا للانسان عند العربي ولكنه وسيلة للمكارم واداء الحقوق قال عروة :

دعيني أطوف في البلادلعلني أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
أليس عظيماً ان تلم ملمة وليس علينا في الحقوق معول

وقال آخر :

كريم رأى الاقتار عاراً فلم يزل أخا طلب للمال حتى تمولا
فلما أفاد المال عاد بفضله على كل من يرجو جداه مؤملا

لقد كان العربي قبل الاسلام يتجه نحو المثل الاعلى ويندفع بدوافع معنوية مثالية ولو اخطأه المثل الاعلى أو اخطأ في فهم المثل الاعلى وحسن تصوره ، فهو مثالي النزعة والاتجاه ولو ضل في الاهتداء الى المثل الاعلى الحقيقي وانحرف عنه. والى هذا المعنى تشير الآية القرآنية الكريمة: «وان كنتم من قبله لمن الضالين» واصفة حال العرب ، وبمثل هذا الوصف خوطب الرسول الكريم نفسه صلوات الله عليه في الآية الاخرى «ووجدك ضالا فهدى» ولا شك أن هذه المثالية في النزعة والاتجاه والدافع كانت تظهر في الوفاء والنجدة والاباء والشمم والكرم وحسن الجوار وغيرها من المكارم ، وان كانت كثيرا ما تضل طريقها حتى تذهب الى اتلاف المال باسم الكرم وازهاق الروح وقتل الولد خوفا من العار وحفظا للشرف . لقد استطاع العرب في الجاهلية ـ حين لم يستطع غيرهم

أن يفعل ذلك ــ ان يعتبروا مكارم الاخلاق والعمل مقياسا للناس ولم يجعلوا من أفراد البشر أبطالا مقدسين يقيسون بهم الاعمال أو انصاف آلهة كما كان يفعل اليونان .

ان هذه النزعة المثالية الاصيلة عندهم لم تكن سلبية تتجلى في امتناع عن اعمال كما كانت عند الهنود ، ولا نظرية كلامية تتجلى في أقوال كما كانت عند اليونان ، ولكنها كانت ايجابية عملية تتجلى في أعمال وكفاح لتحقيقها وان كان ذلك في اطار القبيلة والصحراء كمجتمع وبيئـة .

نزعة مثالية حائرة او ضالة الهدف محدودة الاطار ،ذلك ما نستطيع ان نلخص به هذا الطور من أطوار الامة العربية ، لم تستطع ان توصل العرب الى حضارة جامعة ذات رسالة نقية من تأثير الحضارات الاجنبية المتردية في الخيال أو المادية رغم كل ماظهر للعرب من حضارات .

اما الطور الثاني من تاريخ هذه الامة ، فهو ذلك الطور الذي تحدد فيه هدفها وارتسم مثلها الاعلى واتسع اطارها وميدان عملها ، فكان عهدا حاسما وطورا فاصلا في تاريخها وتاريخ العالم في آن واحد وذلك حينما التقى هذا الاستعداد في امة برسالة إلهية عالمية هي **الاسلام** قدرا من الله مقدورا وقضاء حكيماً مبرماً .

لقد قضى الله ان تلتقي سلسلتان من تاريخ حوادث الكون ، تمثل احداهما : تاريخ العرب منذ تكونهم حتى ذلك العهد ، وتمثل الاخرى تاريخ النبوات والرسالات التي قدر الله تتابعها في البشر وفقا لنمو عقليتهم وتطور مجتمعهم في كل شعب أو جماعة حتى كان التقاء الجماعات والشعوب وبدو مرحلة النضج العقلي حين ظهور الاسلام فجاء خاتمـا

للرسالات الإلهية مراعيا بدء عهد انساني تلتقي فيه الاجناس والامم وفسح المجال للعقل الذي بلغ سن الرشد .

ان هذه الامة العربية ، ذات الاستعداد الفكري والنزعة المثالية والقدرة على الابانة والتعبير والحيوية المناضلة ، كانت مؤلفة من مجموعات من القبائل الموزعة في الجزيرة ما بين بدو وحضر ، تحدوهم دوافع مادية من كسب العيش ، ومعنوية من الشرف والمروءة وعزة القبيلة يناضلون بدافع من هذه الاسباب في حروب وغزوات متوالية في اطار القبيلة .

انتقلت هذه الامة في فترة قصيرة من الزمن الى أمة موحدة منسجمة، استبدلت بالتوزع الى مجموعات قبلية : وحدة مشتركة في العقيدة وفلسفة الحياة والسلوك ، وبأفق القبيلة الضيق صعيد الانسانية الرحب، وبدوافع الكسب والشرف بمفهومه القبلي دوافع غايات بعيدة هي تحرير الانسانية من الخضوع لغير الله وتحقيق العدالة بين الناس جميعا على أساس من الايمان بالله الذي تتحطم عنده الوثنيات التي كانت أساساً للظلم والفساد ، وجعلت فوق روابط الدم والقرابة روابط الخضوع لله وحده أي روابط الاخوة الانسانية ، وفوق عصبية النسب العصبية للحق، وفوق شرف الفرد والقبيلة كرامة الانسانية في الانسان ، وبدلاً من الغزو في سبيل العيش أو في سبيل كرامة القبيلة الجهاد في سبيل الله ، أي في سبيل الحق والخير وكرامة الانسانية .

ولم يكن هذا الانتقال عاديا قريب الخطوات ولا تطورا مألوفا ، بل كان وثبة من وثبات القدر ، وكانت المعجزة الكبرى في هذا اللقاء المقدر بين هذا الاستعداد البشري الرائع في الارض ورسالة السماء

الانسانية العظمى التي سمت عن ان تحد في افق قبيلة أو أن تحصر في شعب في سعة مبادئها واتجاهاتها . كان هذا اللقاء البديع الرائع الوحيد المثال في التاريخ : خير أمة تعي وتدرك وتنفذ ، وخير رسالة جامعة انسانية الافق ، قوامها العدل والحق والخير ، وأساسها الايمان بالله والمسؤولية في حياة خالدة . أمة قيض الله لها ذلك الاستعداد العظيم لتفهم وتعي بعمق وتناضل في سبيل رسالة انسانية عالمية . أمة يقدر لها السمو والارتفاع على نفسها حتى تتمثل الانسانية في وعيها وحتى تجعل الانسانية هدفها وساحة نضالها ، والمبادىء الانسانية قاعدة لسلوكها ؛ لقد قدر الله لها ان تخرج من مرحلة الانانية القومية وحلقتها المغلقة التي لا تزال تدور فيها كثير من الامم التي تحسب اليوم من أرقى الامم ، الى المرحلة الانسانية فلم يعد مجدها الذاتي هو الذي يلتمع لها في الافق فيغريها ، فقد تجاوزت هذه المرحلة الى مرحلة أصبحت فيها رائداً من رواد الانسانية وطليعة من طلائعها ، وأصبح شرفها ومجدها في انها سخرت نفسها لخدمة الانسانية والسير بها نحو المثل الاعلى في هذه الحياة والأخذ بيدها الى ما وراء مظاهر الكون المتبدلة الناقصة الى الكمال المطلق والخير المطلق والحق المطلق ، الى الله خالق السماء والارض . فليست غايتها اقامة ملك ولا امتداد سلطان ولكن تحرير الانسان وتفتيح وعيه وتوطيد حياته على أعمق الاسس وأخلد الصلات ، على الايمان بالله وخلود المصير ، فسمت بسمو الغاية وشرفت بنبل الهدف لا بعاطفة الغرور القومي والعصبية الخاصة والاستعلاء على الناس ؛ وهذا أقصى ما تبلغه الامم من السمو وما تبلغه القوميات من بعد الغاية وسمو المكانة في التاريخ .

لم يقدر الله أن يظهر الاسلام في تخوم الجزيرة حيث كان تأثير

الحضارات الاعجمية المتردية وآثارها الفاسدة ، من فارسية ورومانية بيزنطية وعبرانية يهودية ، بل في أواسطها في الحجاز التي تحمل ذكرى ديانة التوحيد الاولى . ان الاسلام الذي اكتلمت صورته في بضع وعشرين سنة وكان الكتابُ العربي المبين المعبرَ عنه ، والنبيُّ العربي العظيم المفصحَ عنه في قوله وعمله ، والجوُّ العربي أولَ جو تفتحت له عيونه واستيقظ وعيه وتجاوبت مع مبادئه نفسيته . لقد كان هذا الاسلام حدثاً عظيماً جداً بالنسبة للعرب وللعالم أجمع .

لقد نهل الاسلام من النبع العميق الغزير نفسه الذي نهلت منه الديانات السابقة كل واحدة بحسب ما قدر لها وبحسب طاقة الأمة التي شعت عليها وتنزلت فيها ، ولكن الجديد في تاريخ الانسانية في هذه المرحلة هو ما حمله الاسلام الى الناس من نظرة نقلت الانسان من البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الى آفاق الكون ورحابه ، ومن الاسرة والعشيرة والقبيلة والجماعة الى الانسانية بكاملها ، ومن الكون والانسانية معا الى الله خالق الكون والبشر ، ومن الحياة الظاهرة الى حياة اخرى خالدة لانهائية يتقرر فيها المصير والمسؤولية النهائية وهكذا تصبح الحياة حلقات متتابعة ووحدة لا تتجزأ حتى تصل الى اللانهاية ، وبذلك تتفتح أمام الفكر آفاق الوجود ممتدة من عالم الشهادة الى عالم الغيب بلا انقطاع ، وتنفتح آفاق النفس والضمير بالشعور بالمسؤولية امام الله في هذه الحياة وفيما بعدها ، وتتسع آفاق المجتمع ممتدة من الاسرة الى الانسانية الواسعة باجناسها وشعوبها وأجيالها وعصورها .

وتتميز القيم الموقتة العارضة ــ من اللذة والمال والنسب والقربى والعشيرة والقوم والقوة والحكم والسلطان والعقل في حدودها المحدودة لا تتجاوزها ــ من القيم الخالدة المطلقة التي يتطلع الانسان الى الخلود

بالاتصال بها وهي : قدرة الله وعظمته ورحمته ونعمته ورقابته وحسابه ، والمثل العليا المنبثقة عن كماله المطلق : كالعدل والحق والخير وذلك هو التراث المشترك بين الاديان والصعيد الذي يلتقي عليه البشر على اختلاف أجناسهم وديانـاتهم .

على أساس هذه النظرة العميقة الواضحة يبني الاسلام مبـادىء الاخلاق وقواعد السلوك : انسجام بين الحياة المادية التي يفسح لها مجال النمو والتطور دون الوقوف عندها أو الخضوع لسلطانها والحيـاة الروحية التي هي الغاية ؛ وتعاون بين الافراد وكذلك بين الجماعـات على أساس من الكرامة الانسانية المقتضية للمساواة والعدالة الاجتماعية، واخلاق تقوم على أساس الجهاد المستمر لاقامة التوازن ومنع الطغيان ، سواء بين الفعاليات في الفرد أو بين الافراد في الجماعة الواحدة أو بين الجماعات في المجتمع الانساني ، ليكون الفرد كله والجماعة والانسانية كلها مرتبطة بالله خاضعة لحكمه متحررة من الخضوع لشهوة أو فرد أو جماعة ، ومبادىء تشريعية عامة تصون هذه المبادىء الاخلاقية وتفسح المجال لتطبيقها ، وحكم ينفذ هذه المبادىء التشريعية ويحمي تلك المبادىء الاخلاقية ويفسح المجال لرسوخ تلك الاسس الانسانية العميقة المتصلة الجذور بالخلود واللانهاية من غـير اكراه أو تضييق ولا استئثار أو استعلاء .

بين العرب والاسلام

لقد كان بين الامة التي وصفناها والمبادىء التي اوجزناها تلازم وتجاوب ، فقد غدا الاسلام بالنسبة الى العرب المثل الأعلى الذي كانوا من قبله من الضالين الحائرين وعنه غافلين ، وأصبح هو نظرتهم الى الحياة

وفلسفتهم في الوجود والجو الفكري والنفسي الذي في جوه يعيشون. واذا كانت الصحراء والبادية بيئتهم الطبيعية فان الاسلام غدا بيئتهم الثقافية والمعنوية . وان من الظلم للتاريخ ومن الخطأ في الفهم ان نجعل الاسلام بالنسبة لاولئك العرب كالدين بالنسبة الى الامم الاخرى بالمعنى الذي يفهمه الاعاجم قديماً وحديثاً ، أي بمعنى مجموعة من المعتقدات الخاصة بالإله والشعائر العبادية ، لقد كان بالنسبة اليهم فلسفة الحياة ومن خلاله ينظرون الى الكون والوجود والى الإله والانسان ، وفيه تتمثل مفاهيمهم للاخلاق وقواعد السلوك وللحكم والروابط الاجتماعية، وهو بالجملة فلسفة شاملة تبنوها ودانوا بها ونظام عام خضعوا لحكمه ونظموا حياتهم على أساسه .

ولئن كان الاسلام عقيدة عامةفي الحياة ورسالة انسانية ذات مبادىء عامة فان العرب كانوا هم اول من تلقاها وتبلغها ، وهم أول من وعاها وتمثلها ونفذها ، منهم خرج صاحب الرسالة وبلغتهم نزل الكتاب واياهم خاطب أول ما خاطب واياهم كلف بالتبليغ أولاً ومنهم كان صحابة الرسول صلى اللهعليه وسلم الناقلون للاسلام والشارحون لمبادئه ، ولهم كان الوعد أولاً بالنصر والتمكين في الارض وارتفاع الذكر ، وهم الذين استلموا قيادته الفكرية داعين مبلغين ، وقيادته السياسية حماة حاكمين ، وعن طريقه امتدتالشخصيةالعربية عبر الزمان والمكان وامتدت في العالم متغلغلة بين الشعوب والاقوام ثقافة وتفكيرا وسلوكا وخلال العصور والاحقاب ، وهو الذي نقلهم ــ بعد أن وحد مفاهيمهم في الحياة في جميع نواحي الحياة وآفاقها ــ من أفق القبيلة والصحراء الى الصعيد الانساني حيث أصبحوا حداة القافلة الانسانية وقادة الركب وحملة اللواء وبناة الحضارة الانسانية واول من قدم النموذج العملي

الاول لها ، وبه أصبحوا نواة لعالم كبير يحيط بهم كالهالة ، فتلتقي مع الامة العربية على صعيده امم وشعوب كثيرة في نظرتها الى الحياة وفلسفتها وفي مبادئها وأهدافها وفي جذور ثقافتها وفي مقاييسها وقيمها وفي نظرتها الى التاريخ وآمالها في المستقبل . فليست علاقة العرب بشعوب العالم الاسلامي علاقة دينية بالمعنى المفهوم لدى الغربيين ، ولا علاقة استعمارية ، بل علاقة اشتراك في فلسفة الحياة ومفاهيمها وفي العناصر الاساسية للثقافة ، وينظر العالم الاسلامي الى العالم العربي كما يقول العلامة الهندي الاستاذ ابو الحسن الندوي « كزعيمه وامامه » .

والاسلام بعد هذا بمفاهيمه المركزة ونظرته الشاملة ومبادئه العميقة ولغته العربية هو الذي حال دون ذوبان الامة العربية في الحضارات الاخرى حتى في اسوأ عصور الانحطاط حين ضعفت قوتها ومناعتها ، بل كان على العكس بما فيه من مبادىء انسانية قابلة للتعميم مظهراً لتأثرهم في الحضارات والامم الاخرى على مر العصور حتى يومنا هذا .

والاسلام هو الذي نقل العرب الى الطور النهائي من أطوار تطور الامم ، اذ لم يقتصر على جعلها امة ذات حضارة ، بل جعل منها أمة ذات رسالة عالمية ، وحملهم هذه المسؤولية العالمية الضخمة ؛ ويشير القرآن الى ذلك بصراحة اذ يقول : « **وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** » .

ولا بد لي ههنا من وقفة لاصحح مفهومين خاطئين وأنقد فكرتين منحرفتين : **أما الاولى** فتقدم لنا صورة ما تزال تضحكني ، صورة قزم يحمل فوق رأسه حملا ضخما ثقيلا ، تلك هي الفكرة التي تزعم ان العرب كانوا قبل الاسلام امة متوحشة منحطة فاسدة الاخلاق تجمعت فيها الرذائل والمفاسد ثم تزعم بعد ذلك انها هي التي حملت الاسلام

ونشرته وأصبحت به أمة متمدنة بل معلمة للامم . ان هذا التصوير مخالف للحقيقة بل مخالف لنصوص الاسلام نفسه ولمقتضى حكمة الله في هذا الكون ، فقد أشار النبي الكريم صلوات الله عليه الى ما كان عليه العرب من استعداد في قوله : « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فهموا » والى تميزهم بخصال ومكارم بقوله : « أنا خيار من خيار من خيار » وكان يذكر بالاشادة والتعظيم مؤتمرا عقد في الجاهلية عرف **بحلف الفضول** تعاقد فيه العرب في مكة على مناصرة الضعيف واغاثة الملهوف والدفاع عن المظلوم ، وقد حضره وكان شاباً صغيراً وقال في شأنه بعد بعثته : « لقد حضرت في دار ابن جدعان حلفا ما أحب ان لي به حمر النعم » . وأمر باكرام سفانة بنت حاتم الطائي لكر مأبيها في الجاهلية ، أضف الى هذا كله ان الصحابة وهم الذين نقلوا لنا الاسلام وكانوا النموذج الاول لتطبيقه كلهم من العرب لا يستثنى منهم الا نفر ضئيل العدد لم يرد عنه شيء يذكر في التشريع ولا في فهم الشريعة .

اما الفكرة الثانية فهي التي تريد ان تصور تاريخ العرب مجردا من الاسلام ، وتظهر الاسلام كشفيء لصيق في تاريخه يمكن فصله بسهوله ويسر دون ان يغير من الحقيقة شيئاً وأن ينظر اليه على انه مظهر ديني عارض في تاريخهم .

ان اصحاب هذه الفكرة ينكرون واقعا تاريخيا لا يمكن انكاره ، فان الاسلام مهما يكن مصدره في نظرنا فان الواقع انه كان الماليء لتاريخ العرب ، وانه ــ كما قدمنا ــ ليس مظهرا خارجيا في تاريخهم بل يمثل أعمق ما تمثلته ووعته عقولهم ونفوسهم ، يمثل مفاهيمهم ونظرتهم واتجاهاتهم وثقافتهم وخصائص حضارتهم ومميزاتها . وان فصله

عنهم لا يبقى الا معالمهم المادية ، كما انه يهبط بهم عن مستوى القيادة والهداية التي احلهم الاسلام فيها ، ويقطع صلتهم بعالم مترامي الاطراف يدين لهم بالولاء ويأخذ بثقافتهم وحضارتهم ، ويعرضهم لخطر كبير ، خطر الفراغ الثقافي والنفسي الذي يفتح المجال لغزو الشعوبيات الاعجمية ، وقد نسي أصحاب هذه الفكرة ان الامة كيان موجود يحتاج الى غاية يسير نحوها ومبدأ يدين به ، وان القومية انتماء وانتساب ووجود تاريخي يحتاج الى مبدأ وصيغة ، وان القوميات بحسب تطور التاريخ الحديث أصبحت محتاجة الى غاية انسانية جامعة ومبدأ موحد لتعيش معا ولتنمو عبقرياتها ضمن اطار انساني وتعايش سلمي . ولا شك ان هذه الفكرة مظهر من مظاهر التأثير الاجنبي في العرب لانها مبنية على نقل بليد لتاريخ الامم الاخرى الى تاريخنا ، واحلال لمفاهيمهم الخاصة بهم وبقومياتهم وظروفها وثقافتها محل مفاهيمنا المستقاة من تاريخنا وظروفنا وثقافتنا .

بعد هذا الاستطراد نعود كرة اخرى الى التاريخ ولكن لنودع تلك الصورة البديعة الرائعة التي التمعت في افقه ، صورة انبثاق الانسانية من الارض العربية واشعاعها في العالم واتساع رقعة الحضارة الانسانية التي كان الاسلام صيغتها والعرب حملة لوائها والشعوب الدائرة في فلكهم الاعوان والعاملين في بنائها ، تلك الصورة التي تختفي وراء سحب في الافق فلا تبدو الا كالظلال والاشباح البعيدة مدة قرون طويلة وذلك منذ انفصل العرب عن قيادة الركب وتعليم الشعوب ، فانقلب الاسلام على أيدي غيرهم من عقيدة حية خصبة بالقيم الخالدة الى جدل كلامي ، ومن عبادة هي مظهر تجاوب الانسان مع عقيدة الايمان بالله والخلود الى مظاهر واشكال واقوال ، ومن عدالة في التشريع الى نصوص جامدة ،

ومن حكم شوري الحاكم فيه مسؤول لا صاحب امتيازات الى استبداد مطلق ، ومن قيم روحية وجهاد في سبيلها الى زهد هو انعزال وفرار من المعركة . ومن وحدانية محررة للبشر موحدة لهم الى وثنيات مفرقة ، ومن مبادىء عامة مرنة واتجاهات نحو اهداف الى تفصيلات وجمود عند الجزئيات .

تلك هي العهود التي استعجم فيه الاسلام وشوه جماله وقلبت قيمه ومقاييسه وعطلت روحه واستبدل بجوهره اشكاله واسيء فهمه وتطبيقه، فضاقت آفاق الفكر وانحطت الاخلاق وفشا الاستبداد وانتشرت العصبيات وتعطلت سنن الحياة واغفى الشرق على هذه الجاهلية الجديدة اغفاءة طويلة لم يفق منها الا على أصوات جيوش الاستعمار وأضواء هذه المدنية الجديدة القادمة من الغرب وارث الثقافة العقلية من حضارة اليونان والعرب ، والوثنية المادية من حضارة الرومان ، بعد ان جرد الاولى من قيمها الاخلاقية وفصل عن الثانية روح المسيحية وجوهر تعاليمها الانسانية ، وسار مستمرا في تطوره العقلي المادي حتى وقف حيث وقف اليوم عملاقا مجنونا بيده قذيفة خطرة تكاد تنفجر فتقتله وتقتل ما حوله من الاحياء وأسباب الحياة .

وهنا يأتي دور الأمة العربية من جديد لتذكر بعد أمة وتعود سيرتها الاولى ، هادية مرشدة تنقذ الانسانية من شفا جرف هار ، تتحمل المسؤولية وتصل حبالها بالله ، مستمدة من قوته التي لا تتناهى ، مستندة الى استعداد اصيل وتجربة سابقة ناجحة وجذوة وان خبت لم تنطفيء والى مبادىء عميقة الجذور تحررها وتحرر العالم في آن واحد ، مستفيدة من موقعها بين القارات ومكانها المتوسط بين حضارات الشرق الروحية الانعزالية أو

الوثنية الابتدائية وحضارات الغرب العملاق الاحمق المشوه الخلقة ، ومن مكانتها المعنوية بين شعوب تلتف من حولها وتنهل من ثقافتها وتشدها بها أواصر الفكر والتاريخ والاهداف والمقاييس والقيم ، ومن رصيد من الحضارة لم يستنفد ولم تفقد الايام على مرها قيمته .

ان الامة العربية مدعوة من جديد لتحمل مسؤولية عالمية ضخمة ولتحمل مشكلة الانسانية وتسير مرة اخرى على هدى من ربها في رأس القافلة وطليعة الركب الانساني هادية مرشدة .

ان العالم اليوم يتلظى بنار المادية ، سواء أخذت شكل الحريةالفردية وطغيان الشهوة والاثرة والرأسمالية الجشعة وظلم الطبقات واستعمار الشعوب ، أو شكل التنظيم الجماعي والتسيير الآلي للافراد وقصر الحياة على الاهداف المادية وما يخدمها في اشتراكية مادية .

انها رسالة تستمد وحيها من ماضينا وتحيط بآفاق حياتنا لتحل مشكلاتها وتقيم التوازن الذي اختل . انها روحية الجذور والغايات تتصل بالله في بداياتها ونهاياتها ، انسانية المبادىء والمفاهيم ، اخلاقية الاهداف والمقاصد ، ايجابية السلوك ، مجاهدة في سبيل أهدافها الاخلاقية والغايات الروحية ، واعية للمشكلات الزمنية ، تعيش في ظروف عصرها وجوه وشروطه ، صادرة في حلولها عن وعي انساني عميق وروحانية تتصل بالله لا عن ردود فعل آنية تردها يمينا ويسارا أو عن تأثيرات خارجية تدفعها لتبنّي أهداف وقيم لا تصلح أن تكون أهدافا ثابتة وقيما مطلقة .

« كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

« الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور » .

ان أبرز اعراض الحضارة الحديثة المرضية تتجلى في طغيان الشهوات والاهواء في الفرد « ظلم الانسان لنفسه » ، وفي الجور الاقتصادي واستئثار افراد أوطبقة من الناس بالاموال والمنافع، وفي الظلم الاستعماري واستعباد الشعوب بعضها لبعض في شكل صراع بين الامم ، وما يتبع هذه المظالم الفردية والطبقية والقومية من أنواع العصبيات وضروب التنافس الحربي أو الاقتصادي ، وما ينتج عنه من مآس بشرية ونكبات . ان هذه الآفات والأمراض كلها لا تداوى من ظاهرها بسن نظم وقوانين ولكن من الاعماق والجذور ، ولا يزيلها الا تغيير عميق في النفوس يبنى على نظرة صحيحة وفلسفة قويمة للحياة تصل الحياة الانسانية، بغاياتها البعيدة وجذورها العميقة ، بمصدرها ومصيرها ؛ وهـذا هو الذي استهـدفته الديانات السماوية في تراثها الروحي المشترك القائم على عبادة الله وحده وتجنب الطواغيت وجاء به الاسلام واضحا قويا معتبرا اياه الصعيد المشترك الذي يصح ان تلتقي عليه الديانات .

ولا بد مع هذا الاساس الروحي العميق وهذه النظرة الاعتقادية من نظام لحياة الفرد والجماعة يكون منسجما مع هذا الاساس منسجما مع الغايات والاهداف ، فالحياة وحدة لا تتجزأ وكل اجزائها يؤثر بعضها في بعض ولهذا لا يجوز النظر في حلولها مجزأة منفصلة ، فالفلسفة والعقيدة وقواعد سلوك الفرد ومناهج توجيه الجماعة وقواعد التشريع وطريقة الحكم والسياسة تؤلف بمجموعها كلاً يؤثر بعضه في بعض ولهذا وجب أن يكون بينها انسجام وتوافق وان يجمع بينها نظام شامل كلي وبهذه الطريقة المزدوجة ــ التي لا تكتفي بالنظام الظاهري والاصلاح

التشريعي فيكون عملها هدرا ولا بالاصلاح الروحي المنعزل عن نظام حياة الانسان فردا وجماعة ـ يمكن ان تتحرر البشرية من ظلم المجتمع والقوميات في العالم لتسير نحو انسانية حقيقية تصدع بأمر الله وتخضع لرقابته وتتوجه نحو الغايات البعيدة التي قدرها لها .

ان العالم اليوم منتظر ومترقب لحضارة من نوع جديد ، لنموذج انساني ، ولمبدأ ينشيء انسانية سعيدة ولرسالة قابلة للتعميم تجتمع عليها الامم متعاونة شاملة لنواحي الحياة. وهذه الرسالة محتاجة الى أمة تستطيع تمثلها والاضطلاع بعبئها والتبشير بها . اما هذه الامة فقد اختيرت منذ الازل، انها **الامة العربية** التي حدد الله مسؤوليتها في قوله : **وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** وفي قوله : **لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .**

واما الرسالة فهي **الاسلام** بالمعنى الذي فهمه العرب الأولون فشادوا به حضارة واقاموا عدلا ونشروا علما ونظموا مجتمعا وجمعوا الامم على صعيده الانساني وبه وقفت الامة العربية فلم تذب شخصيتها في القديم أمام الرومان والفرس واليونان وحديثا أمام الفرنسيين والانكليز وغيرهم .

شروط لا بد منها

ولا بد لقيام الامة العربية بعبء هذه الرسالة على نطاق عالمي من شروط يجب تحقيقها وهي :

اولا ـ انهاء المعركة مع الاستعمار والجهاد في سبيل تصفيته في الارض العربية في فلسطين والجزائر وسائر ارض المغرب وفي جنوب الجزيرة .

ثانياً ـ تحرير البلاد العربية من نفوذه في البلاد التي يحكم فيها اولياؤه واعوانه من خدام الاستعمار .

وبذلك تكون الارض العربية قاعدة انطلاق واشعاع .

ثالثاً ـ تدارك التخلف الاجتماعي والاقتصادي الذي وقعنا فيه منذ مئات السنين ومنذ العصور التي شوهت فيها رسالة الاسلام .

رابعاً ـ احداث ثورة في المفاهيم للتخلص من الجمود الناشيء عن الفهم الاعجمي للاسلام في العصور التي تخلى فيها العرب عن مهمة القيادة الفكرية والسياسية ، وللتخلص من التقليد والتبعية للتفكير الاجنبي على اختلاف مصادره واشكاله ، والعودة الى القيم الحيوية والمفاهيم الصحيحة التي من خلالها فهم العرب الاولون الاسلام . وبذلك يتم الوعي الذاتي والسيادة الحقيقية الكاملة .

خامساً ـ اعتبار الاسلام بالنسبة الى أبناء الامة العربية على اختلاف أديانهم تراثهم القومي ومادة ثقافتهم ، وايقاظ الشعور الذاتي بمسؤولية حمل الرسالة العالمية في نفس كل عربي .

سادساً ـ تعاون المنتمين الى الاسلام والنصرانية من أبناء العربية تعاونا وثيقا واعتبار الاسلام والنصرانية موجتين روحيتين متلاحقتين ظهرتا من الشرق العربي ، ومما يعين على ذلك تخليص الاسلام من المفاهيم الدخيلة في العهود الاعجمية ، وتخليص النصرانية من الروح الغربية والعودة بها الى روحها الشرقية ، واعتبار الغرب وارثِ الوثنية الرومانية وحضارته المادية الحديثة خطرا على المعسكر الروحي أو على الديانتين معاً .

سابعاً ـ تعاون أصحاب الشعارين ، العروبة والاسلام ، على أساس فهم الاولين ما بين العرب ورسالة الاسلام من تلازم وتجاوب ، وتبني

الفهم العربي الأصيل للأمة ، وفهم الآخرين مكانة العرب في رسالة الاسلام سواء في التاريخ أو العصر الحاضر ، وتبني الفهم العربي السليم الذي فهم به الصحابة الاسلام .

ثامناً ـ التعامل مع الدول الاجنبية على أساس معاداة العدو ومصادقة الصديق دون الاندماج أو التبعية ، ورسم خطة للتعاون مع الشعوب التي تربطنا بها روابط الثقافة والتاريخ ورابطة الاشتراك في فهم الحياة وفلسفتها من الشعوب الاسلامية ومعاونتها على تحررها من الاجنبي ومن حكم عملاء الاجنبي من أبنائها .

العناصر الخالدة من تراث الأمة العربية

القيت هذه المحاضرة في جامعة القاهرة في الندوة الثقافية التي نظمتها وزارة التربية والتعليم المركزية في شهر تموز ١٩٥٩

تبدأ الامة العربية اليوم مرحلة جديدة من مراحل نهضتها هي أدق وأخطر من المرحلة التي اجتازتها ، ذلك اننا كنا في جهاد لتحرير أرضنا ونيل استقلالنا ، ولا نزال كذلك في مرحلة هذا الجهاد في بعض أقطار العروبة ، ولكن الجمهورية العربية ـ وهي طليعة هـذه الاقطار في اجتياز هذه المرحلة ـ قد بدأت مرحلة جديدة هي مرحلة التحرر الفكري، والاستقلال في ميدان المبادىء والافكـار ، والخروج من الوصايـة والحماية ودوائر النفوذ في هذا الميدان .

لقد مضى الزمن الذي كان فيه أكثرنا يفهم الاستقلال فهما ماديا ضيقا ويقصره على الارض ويقنع بأن تسلم له يتصرف بها ، أوَ ليس لنا مع ارضنا ملك آخر هو تراثنا المعنوي واستقلالنا الفكري وحريتنا في طريقة البناء في هذه الارض ، او ليست كل محاولة لانتقاص حقنا في هذه الحرية بأي طريقة من الطرق ، والنيل من هذا الملك وذلك التراث، ضربا من الاستعمار والاعتداء لا يقل ابدا عن الاعتداء على أرضنا . ان الذي يمكّن الغريب الاجنبي من ارضنا ، يسلمه منها شبرا ، أو من سيادتنا يحكمه في رقابنا ، أو يحكم في بلدنا لحسابه ومصلحتـه ، والذي يمكنه من قتل خصائصنا وغرس ما يريد من أفكار في عقولنا الغضة الحديثة العهد بالتفتح واليقظة ، كل أولئك أتباع وخونة وأعوان للاجنبي على ابناء بلادهم . ان الامة التي قضي على شخصيتها وروحها وخصائصها تسلم أرضها ولو كانت مستقلة ، والامة التي تحافظ على خصائصها تطرد الاجنبي وتسترد الارض مهما طال الزمن . لقد دب

فينا **الوعي لأرضنا وانفسنا** فقمنا ندافع عن الارض ومن عليها من أبناء قومنا بعد أن تم شعورنا بهذا الجسم الحي الذي هو جسمنا الممتد على أرض العروبة ثم دب فينا الوعي لشخصيتنا المعنوية ولمبادئنا وأخذنا نشعر **بشخصيتنا الممتدة عبر الزمان** تتلمسها في أفكارنا ومشاعرنا واتجاهاتنا وعقائدنا المتسلسلة الموروثة منذ عصور وعصور . لقد استيقظت **ذاكرتنا الجماعية** بعد ان استيقظ **حاضرنا** .

ان من فضل الله على الجمهورية العربية المتحدة أنها في مقدمة ركب العروبة في اجتياز مراحل التحرر المادي والمعنوي ، والقضاء نهائيا على عهد التبعية سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو فكرية ، وبذلك انفسح المجال لظهور شخصيتنا وذاتيتنا وخصائصنا الأصيلة . فما هي معالم هذه الشخصية وتلك الخصائص ؟ .

ان التحرر مرحلة سلبية يعقبها مرحلة ايجابية **هي البناء** ، البناء المادي والمعنوي . ان علينا بعد انتهاء التبعية ان نختار بأنفسنا نظامنا السياسي ونظامنا الاقتصادي ونظامنا الفكري . وليس معنى ذلك الانعزال ولا الجهل ولا مجافاة أنظمة الامم الاخرى ، ولكن معناه حرية الاختيار ، اختيار ما يلائمنا دون الشعور بالنقص واعتقاد التفوق في الآخرين ، اختيار ما يلائم شخصيتنا ولا يشوه معالمها . ان الحكومة المشرفة على توجيهنا وحمايتنا لا تستورد من الخارج ما يكون في بلدنا من جنسه ، ولا ما نستطيع ان نصنعه بأنفسنا ، فلماذا لا نطبق هذه القاعدة في ميدان الفكر والمعتقدات ايضا ؟ أفلا يجب أن نملأ نحن الفراغ الناشىء عن التحرر لئلا يتجدد الغزو من جديد ؟ فكيف نملأه ؟ هل عندنا من عناصر البناء ما يصلح لبنائنا الذي نقيمه ؟ هل لنا من ثروة موروثة أو رؤوس اموال فكرية يمكن أن نستثمرها ونستفيد منها ؟

لقد كان العرب يجعلون المال صنفين : الطارف ، وهو المستحدث ، والتليد ، وهو الموروث منـذ الولادة ، ويجعلون للانسان نوعين من الانتماء : النسب ، وهو الانتماء الى الآباء ، والحسب ، وهو العمـل الذي يقدمه الانسان بنفسه ، وقد قال شاعرهم :

لسنا وان آباؤنا كرمت يوما على الانساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنـا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ومع أنا من أغنى الامم تراثا ، لا احب ان استرسل في هذا النوع من الفخر ، فالتراث هو الموروث ، أفنأخذه لمجرد كونـه موروثا دون النظر الى صلاحه للحياة والبقاء ؟ أفلا نكون بذلك مخالفين للحق ، بل لتراثنـا نفسه اذ نقف مـوقف وثنيي العرب من دعوة الاصـلاح الكبرى حين قالوا (انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون) وكان الموقف الصحيح هو موقف الرسول العظيم اذ أمر أن يقول : « أولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه اباءكم » ؟

اننا يجب ان نعرف تراثنا وان نعرف ما فيه من عناصر حية وقيم خالدة تصلح ان تكون عناصر في بنائنا الجديد . اننا نقف وفي أيدينا أدوات البناء لنبني بها لحاضرنا ومستقبلنا ، وعيوننا تتلفت وتبحث من حولنا وفيما وراءنا من العناصر المتينة الصالحة .

لقد كان لنا تراث ساهم في الماضي في اقامـة حضارة انسانيـة حضنت العلم ودافعت عن العـدالة وأقامت موازين الحق وسوت بين الناس ، فهل يستطيع هـذا التراث اليوم ان يساهم في اقامـة حضارة جديدة في ظروف الانسانية الحاضرة ؟

ان الانسانية كلها اليوم في أزمة : فقـد رقىّ الانسان الوسائل

ولم يسم بالاهداف والغايات . تحسنت وسائل العيش وتردى الضمير الانساني ، وغدا الانسان عبدا للآلة التي صنعها بيده ، وطغت الاهداف المادية على البشرية جمعاء وطبعت الحضارة الحديثة بطابعها ، وهي على اختلاف أشكالها لا تعرف الا باسم مادي ، فهدفها ـ سواء اكانت رأسمالية ام اشتراكية ـ المادة وحدها ، والخلاف في طريقة توزيع الثروة المادية كما تدل عليها اسماؤها وسماتها لا في اهداف الحضارة وغاياتها البعيدة وقيمها الاساسية . ان التنافس والخلاف في انظمة خارجية للحكم أو لتوزيع الثروة اما الجذور النفسية لهذه النظم والصلات التي تصلها بالضمير الانساني فمتقطعة مهملة متروكة .

فهل نستطيع بما عندنا من تراث أن نساهم في حل معضلة الانسانية؟

تتنافس القوميات اليوم على الثروات وتتعالى بالعروق وتتفاخر بالامجاد وتتزاحم في المطامع وتتبارى في التسلح وتستحل كل منها في سبيل مجد موهوم أرواح الآخرين وأموالهم ومقدساتهم وأراضيهم ، وتتجدد على مسرح العصر الحديث مآس لا تعد مآسي العصور الغابرة بالنسبة اليها شيئا ، ذلك انها اتخذت من قومياتها غاية ما بعدها غاية وداست الحق والعدل والرحمة في سبيل عصبيتها .

فهل نستطيع بما في تراثنا من عناصر الخير والانسانية ان نساهم بنصيب في ايجاد صعيد انساني تلتقي فيه الشعوب وتتعاون فيه القوميات دون أن يطغى بعضها على بعض ؟ وحينئذ فقط نستطيع ان نفاخر بهذا التراث وبالامة التي ننتسب اليها . فالقوميات انما تتفاضل بما تقدمه كل واحدة منها للبشرية من فكرة انسانية وما تحققه من خطى

نحو الهدف الانساني ومن تخفيف المآسي الانسانية وتحقيق للعدالة وارتفاع بالضمير الانساني • لم يعد من المستساغ أن تنادي كل قومية : أنا فوق الجميع ، أو ان تفاخر بعرقها • ان البشرية تتنزى جروحها وهي تنتظر من يداويها ويواسيها فهل تتقدم العروبة بتراثها الانساني لتداوي البشرية المكلومة التي ضاعت بين الرأسمالية والاشتراكية ؟ •

وهنا تبدو لنا وظيفة الامة العربيـــة ورسالتها • ان رسالتهـــا هي تحقيق الانسانية في العالم وربطها بمصدر وجودها وايقاظ ضميرهـــا واشعار الانسان بمسئوليته كانسان مستخلف في هذه الارض ليس إلها طاغيا ولا عبدا ذليلا مسترقا •

لقد عرف عربي بسيط رسالـــة امته بعمق وايمـــان وجزم بأكثر مما يعرف فلاسفة القومية اليوم ، فقد دخل احد الفاتحين من العرب في الفتح الاسلامي الاول على قائد جيش الفرس في قصره وبيـــده رمح يدق به الارض فيخرق ما عليها من الطنافس الحريرية دون ان يبالي وجرى بينهما حديث حاول فيه الفارسي أن يغريه بالملذات والنعيم فكان جواب العربي : « لقد جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام » ومعنى قوله هذا ان العدالة هي الهدف ، والايمان بالله هو المحرر للانسان من عبادة البشر وعبادة المال ، وهو السند الحقيقي للعدالة والدافع الى تحقيقها •

ان تحديد معالم رسالة الامة العربية يقتضينا دراسة ماضينا وتراثنا ، كما يقتضينا معرفة الظروف المحيطة بنا ، والعالم الذي يعيش من حولنا، لندخل في حلبة الصراع على علم ولنكون عنصرا عاملا على تغليب الحق على الباطل والعدل على الظلم والامن على الاعتداء والانصاف على الطغيان•

عناصر تراثنا

لنسرح الطرف عبر القرون ولنبحث عن العناصر الانسانية والقيم الخالدة من تراثنا : ان **الايمان بالقيم الخلقية والمعاني المثالية في الحياة** هو أول خط من خطوط هذا التراث . فالعربي منذ عهد الجاهلية يتجه نحو المعاني المثالية ويضعها في مرتبة أعلى من المقاصد المادية ، ويحتقر من يجعل همه في الحياة المأكل والملبس .

لحى الله صعلوكا مناه وهمه من العيش أن يلقى لبوسا ومطعما
ولله صعلوك يساور همه ويمضي على الاحداث والدهر مقدما
(عروة بن الورد)

ان المال يزول ولكن المكرمة باقية :

أماوىّ ان المال غاد ورائح ويبقى من المال الاحاديث والذكر
(حاتم الطائي)

وهو يفضل الجوع مع العز على العيش الذليل :

أديم مطال الجوع حتى أميته واضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
واستف ترب الارض كي لا يرى له عليّ من الطول امروء متطول
ولولا اجتناب الذم لم يلف مشرب يعاش به الا لدي ومأكل
ولكن نفسا حرة لا تقيم بي على الضيم الا ريثما أتحول
(الشنفري)

ولذلك استعذب العربي الموت فرارا من الذل والعار وفضل الاقدام:

تأخرت أستبقي الحياة فلم اجد لنفسي حياة مثل أن اتقدما

عرف العربي منذ الجاهلية بالاباء والمروءة ، والعفة عن الاعراض ، والكرم وحماية الجار والحليف ، والايثار ومشاركة الناس .

ومن أجمل ما قيل في هذا الموضوع قول عروة بن الورد :

أتهـزأ مني ان سمنتُ وان ترى بجسمي مس الجوع والجوع جاهد
فإني امروء عافي انائي شركـة وانت امروء عافي انائك واحد
اقسم جسمي في جسوم كثـيرة واحسو قراح الماء والمـاء بارد

وهم لا يكتفون بمنع الظلم عن انفسهم حتى يمنعوه عن جارهم وحليفهم :

وما جار بيتي بالـذليل فترتجي ظلامتـه يومـا ولا المتهضم
إنـا لعمـرك لا يضـا م حليفنـا أبـدا لدينـا

بل يتضامنون معه على الخير والشر :

لا يسألون أخاهم حين ينـدبهم في النائبات على ما قال برهانـا

فينعم بجوارهم ويشاركهم سراءهم :

وهمُ ربيـع للمجـاور فيهمُ والمرملات اذا تطـاول عامهـا

ولكن العربي مع هـذا لا يهمل مطالب العيش ولا السعي وراء الرزق ، وليست مثاليته سلبية ولا خيالية ولا بعيدة عن الفطرة ، فالفقر مقرون عادة بالذل وهو يكره الذل :

فالموت خير من حياة يرى لهـا على الحر بالاقلال وسم هوان

ولكنه لا يكون عبدا للمال بل المال خاضع لاغراضه مسخر لاهدافه الطيبة :

اذا كان بعض المال ربا لأهلـه فاني بحمـد الله مالي معبَّـد
يفك بـه العاني ويؤكل طيبـا ويعطى اذا مـن البخيل المصرد
(حاتم الطائي)

وبالجملة **فان العربي كان في الجاهلية متجها اتجاها مثاليا ولو اخطأ الهدف وضل السبيل** فاسرف وبالغ ووضع الامور في غير مواضعهـا ، فأهدر المال بدافع الكرم وقتل البنت بدافع توهم العار ودافع عن حليفه

ولو كان ظالما ، وبدأ غيره بالظلم دفعا للظلم عن نفسه ، وبذلك استحق ان يوصف **بالجهل** الذي هو ضد الحلم والحكمة .

زد على ذلك أن هذا الاتجاه المثالي كان في اطار القبيلة وفي نطاق الصحراء. فلما عمت الجزيرة رسالة الاسلام واستجاب لها العرب ، تجاوب الاستعداد المثالي العربي مع مثالية هذه الرسالة وانتقل الاستعداد والاتجاه المثالي الى تحقيق المثل الاعلى وتحديد الهدف ووضوح الغاية . فأصبحت التضحية بالنفس في سبيل احقاق الحق وتحقيق العدالة ، وأصبح الكرم مالا يجبى ويوزع بالعدل وبحسب الجهة والحاجة ، وغدا الاباء غضبا للحق وثورة على الظلم وارضاء للفضيلة وانكارا للمنكر وعاد التضامن مع القبيلة تضامنا مع المجتمع كله والعصبية للقبيلة عصبية للحق واصبح حب الحق والجهاد في سبيله اسمى من حب الاسرة والعشيرة والمال : (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) .

وغدا السعي في طلب الرزق جهادا وعبادة والتمتع بملذات الحياة المشروعة سنة إلهية (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) (كلوا مما في الارض حلالا طيبا) .

ولسلوك الانسان في هذه الحياة غاية بعيدة أعلى من المجد أو الملك وارتفاع الذكر : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) .

لقد نقل الاسلام مثالية العرب من صعيد الصحراء الى صعيد

البشرية ومن اطار القبيلة الى اطار الانسانية ومن الاتجاه غير المحدد الهدف الى مثالية شاملة منظمة رائعة حققت معجزة التاريخ التي أراد الله أن يكون العرب أداتها والمنفذين لها .

مظاهر الاتجاه المثالي عند العرب

١ ـ وان مظاهر هذا الاتجاه المثالي عند العرب **تكريم الفكرة وتخليدها** وتكريم الاشخاص بما فيهم من المكارم لا بأجسادهم المادية ولذلك لم يؤله العرب الاشخاص كما فعل اليونان والهنود ولا أقاموا التماثيل المادية ولا اخترعوا الاساطير الكاذبة بل حققوا المثالية في قصصهم الواقعية وخلدوا ابطالهم من غير تماثيل بمكارمهم الخالدة . فلو قلت في العرب حاتم لقيل الكرم ولو قلت عنترة لبرزت الشجاعة وكذلك بعد الاسلام فمحمد رسول الله الى الانسانية خلدته رسالته (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) . وقد قال ابو بكر : (من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) .

٢ ـ ومن مظاهر هذا الاتجاه المثالي **الشعور الانساني** الذي يدفع الى تحقيق الخير والتحسس النفسي العميق لتحقيق الخير للناس جميعا واشراكهم فيه ، قال حاتم :

اذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له اكيلا فاني لست آكله وحدي
أخا طارقا أو جار بيت فانني أخاف مذمات الاحاديث من بعدي
واني لعبد الضيف مادام ثاويا وما فيّ الا تلك من شيمة العبد

ثم جاء الاسلام ليعلن أن (الخلق كلهم عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعياله) (والله لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع الى جنبه) (يا ايها

الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) بل يتجاوز الاسلام الشعور الانساني الى الشعور الحيوي أي مشاركة كل ذي حياة (في كل كبد رطبة أجر) (ما من مسلم يغرس غرسا فيأكل منه انسان أو دابة أو طير الا كان له به صدقة) .

٣ ـ ان هذا الاتجاه المثالي والايمان بالقيم الخلقية في الحياة بلغ ذروته وأرفع أشكاله في الشعور العميق بالصلة بمصدر الكون وموجده، واستشفاف وحدانية هذا المصدر من وراء المظاهر الطبيعية المتعددة الكثيرة ، والشعور العميق بالمسؤولية امامه شعورا جعل ضميره حيا يقظا ، والايمان بالعدالة المطلقة في حياة خالدة في دورة أخرى لهذا الوجود .

ان عقيدة الايمان بالله الواحد قديمة في العرب قبل ان تأتي اليهودية بل قبل ان يخلق اليهود . فإنها ترجع الى عهد ابراهيم حين هاجر من بين النهرين الى الجزيرة وتزوج فيها ورغم تسرب الوثنية الى العرب بعد ذلك فان الايمان بخالق الكون الإله الواحد والايمان بالجزاء والمسؤولية كان معروفا فاشيا عند العرب في الجاهلية كما يصرح بذلك القرآن وكثير من الشعر الجاهلي . والاسلام انما جاء مجددا وباعثا لهذه العقيدة (ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) .

ان هذه العقيدة حررت العربي قديما وحررت العالم بأسره بعد الاسلام من عبادة الطبيعة من جهة ومن عبادة البشر بعضهم لبعض من جهة أخرى وجعلتهم كلهم متساوين يشتركون في كونهم مخلوقات الله مسئولين ومحاسبين مهما كانت قيمتهم ولذلك أكد القرآن صفة البشرية للرسول وكونه عبد الله .

ان تحرر البشر من الخضوع للملوك خضوع العبادة ومن التذلل لارباب الأموال وأصحاب القوة والنفوذ والسلطان انما كان نتيجة لهذه العقيدة التي سوت بين البشر جميعا .

لقد كان لهذه العقيدة المثالية عقيدة الايمان بالله وبالمسئولية العظمى أمام الله وتساوي الناس جميعا بالنسبة اليه آثار عميقة جدا من الناحية الفكرية والسياسية والاجتماعية والاخلاقية .

٤ ـ ان الاتجاه المثالي الذي سار فيه العربي في الجاهلية والقيم المثالية التي آمن بها في الاسلام لم يقف منها موقفا نظريا بل عمل على تحقيقها وسلك الى ذلك طريق الجهاد ، فالجهاد هو بذل الجهد بجميع صوره واشكاله لتحقيق الخير والمثل الاعلى . فلا يقف العربي حياديا في صراع الخير والشر والحق والباطل والعدل والظلم ، بل لا بد من ان يشترك في الصراع لينصر الخير والحق والعدل . لقد عرف العربي قبل الاسلام بالحرب والقتال في سبيل رد الظلم وحماية الجار والحليف والخروج من الذل الى العز ، كما عرف بعد حمله رسالة الاسلام بالجهاد ، جهاد النفس عن الهوى ، وجهاد اللسان وجهاد السيف في سبيل احقاق الحق واقامة العدل (وما لكم لا تقاتلون **في سبيل الله والمستضعفين** من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية **الظالم أهلها**) .

ولذلك كانت فتوحات العرب بعد الاسلام تحريرا للشعوب من ظلم الملوك المتألهين والاقطاعيين والمستبدين ولم تكن في سبيل تكوين امبراطورية ولا الحصول على مكاسب أو امجاد قومية .

والقرآن الكريم واضح في ان غاية الرسالة والنبوات اقامة العدل

(انا أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان **ليقوم الناس بالقسط** وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) ، (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) .

ان الاسلام نقل القتال من الصراع القبلي في الجزيرة الى الجهاد في سبيل تحرير البشرية من انواع العبوديات وتحقيق العدالة والمساواة بين الناس ولذلك قابلتـه الشعوب بالترحـاب ولا تزال تعتبر تاريخ دخول الجيوش الاسلامية اليها تاريخا لتحريرها وهدايتها .

٥ ـ على هذه **الاسس الخلقية المثالية والايمانية** قامت حضارتنـا ، وعليها اقيمت نظمنـا وبني صرح مجتمعنـا ، وعنها انبثقت مفاهيمنـا السياسية والاجتماعيـة والاخلاقية ، وبهـذا الاساس العميق المتصل بالحقائق العامة في الوجود من جهة وبالنفس الانسانيـة والضمير من جهة اخرى تتميز مؤسساتنا ومنظماتنا الاجتماعية ، ولنضرب على ذلك مثلا مفهومنا الاصيل الموروث **عن نظام الحكم والسياسة** ويتراءى هذا المفهوم من الاقوال التالية :

كتب عمر الى ابي موسى الاشعري وكان واليا على بعض الاقاليم : انما انت امروء منهم وقد جعلك الله أثقلهم حملا وقد بلغ امير المؤمنين انه فشا لك ولأهل بيتك هيئـة في مـأكلك وملبسك ومركبك ليس للمسلمين مثلها فاياك يا عبد الله ان تكون بمنزلة البهيمة نزلت في واد خصيب فلم يكن لها هم الا في السمن وانما حتفها في السمن واعلم ان للعامل مردا الى الله فاذا زاغ العامل زاغت رعيته وان اشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام .

ودخل أبو مسلم الخولاني على معاوية فقال : السلام عليك أيهـا

الاجير فقالوا قل أيها الامير فاعادها ثلاثا ثم قال انما انت اجير استأجرك رب هذه الغنم فان انت داويت مرضاهـا وجمعت أولاها على أخراها وفاك سيدك اجرك وان انت لم تفعل عاقبك سيدك .

وقال عمر ردا على من ارادوا منه ان يوسع على نفسه من بيت المال: انما مثلي ومثل هؤلاء ـ أي الرعيـة ـ كمثل جماعة سافروا فأعطوا نفقاتهم الى رجل منهم فهل يحل له ان يستأثر بشيء منها . وقال ابو بكر حين حملوه على ان يأخذ مرتبا من بيت المال : يأخذ ابو بكر من بيت المال ويحترف للمسلمين .

من هذا كله استنتج ابن تيمية ان الولاية اجارة ووكالة ونيابة [1] فليس الحكم تميزا ولا سيادة ولا استعلاء وأسسه التي يبنى عليها هي المسئولية أمام الناس لا امام الله فحسب والشورى والعدل بين الناس دون تمييز في نسب أو قرابة أو دين ، وهل من نظرة اسمى وارقى من هذه النظرة .

وكذلك مفهوم التضامن والعدالة الاجتماعية والتملك :

فالمال ملك الله والانسان مستخلف فيه (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) (من مال الله الذي آتاكم) فليس التملك اذن حقا مطلقا وانما هو تصرف ، للحاكم الذي هو نائب عن المجتمع أن يقيده ويحدده بحسب المصلحة الاجتماعية ويدل على ذلك قول الرسول الكريم مقرونا باستنتاج أحـد الصحابة ، اذ قال في موقف من المواقف : (من كان لـه فضل زاد فليعـد به على من لا زاد لـه ومن كان لـه فضل ثوب فليعـد

---

(١) في كتابه المبدع القيم : السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية.

به على من لا ثوب له ومن كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له) قال الصحابي حتى رأينا انه لا حق لاحد منا في فضل .

ولذلك قال عمر : والله لو استقبلت من امري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الاغنياء وأعطيتها فقراء المهاجرين ولذلك كان ما يؤخذ من اموال الاغنياء من ضريبة الزكاة ليس من نوع التبرع الاختياري وانما هو من الواجبات المالية وأول حرب داخلية في الاسلام كانت ضد مانعي الزكاة واعتبروا لذلك مرتدين خارجين على النظام العام (والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وهذا الحق ليس هو الزكاة وحدها ففي المال حق سوى الزكاة كما هو رأي جمهرة من الصحابة وملكية الارض بوجه خاص ليست الا نوعا من التصرف ورقبة الارض للمجتمع أو لبيت المال الذي هو ملك مشاع للامة ولذلك كان تحديد ملكية الارض ولا سيما حين يضر بالمصلحة العامة أمرا منسجما مع تراثنا واتجاهنا ومع مبادىء الاسلام نفسه .

وحقوق المواطنين في بيت المال لا تختلف باختلاف طبقة او دين فقد فرض عمر من بيت المال لغير المسلمين من المواطنين دون تمييز وانما المقياس كما قال عمر (فانما هو الرجل وحاجته والرجل وجهده والرجل وسابقته) واما رأي علي فالمساواة المطلقة ، وأعلن خالد : (وايما شيخ عجز عن العمل وأصابته آفة او كان غنيا فافتقر طرحت جزيته ان كان ذميا وزكاته ان كان مسلما واعيل من بيت مال المسلمين) .

الفقر يحارب كما يحارب الترف فقد كاد الفقر ان يكون كفرا واستعاذ الرسول منه كما استعاذ من الكفر لأنهما كليهما انكار لحقائق الفطرة .

واما الترف فقد اقترن في القرآن دوما بوصف من اوصاف الظلم والاجرام والكفر والدمار والفساد : (واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين) .

(واذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) .

(وقال الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم) .

(حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون) .

(ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون).

(وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم انهم كانوا قبل ذلك مترفين) .

وقد كانت خطة عمر التي فكر فيها للمستقبل هي التي عبر عنها بقوله : ليأتين الراعي وهو بجبل صنعاء رزقه من هذا المال وهو في مكانه .

وقوله : لئن سلمني الله لادعن أرامل أهل العراق لا يحتجن الى أحد.

والنظام الذي تثبت فيه الطبقات ولا يتحرك المال فيه ويتداول يخالف روح القرآن اذ يقول (كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم) وبلغ استنتاج فقهاء الاسلام أنهم اجازوا لولي الامر وهو كما قلنا نائب ووكيل عن الامة ان يتدخل في جميع أنواع الفعاليات الاقتصادية لمصلحة الجماعة كما استنتج ابن تيمية في كتابه الحسبة في الاسلام منذ سبعة قرون .

تلك هي اتجاهات الاسلام ومناهجه اجمالا في العدالة الاجتماعية

وهي تتجاوب مع ذلك الاتجاه الذي كان للعرب قبل الاسلام ولو ان مظاهره عندهم كانت ابتدائية بسيطة ـ أقول انها اتجاهات ومفاهيم لأن الاسلام اكتفى بذلك تاركا المجال في كثير من التفصيلات لتجارب الزمن واجتهادات البشر دون أن يقيدهم بأنظمة نهائية كما فعل كذلك في الحكم.

ونستطيع ان نقول اذن ان في الاسلام الذي هو تراثنا مفهوما للعدالة الاجتماعية والتملك واضح الاتجاه يتصف بالمرونة ، ويستمد قوته ـ وهذا هو الأهم ـ من العقيدة المحررة للبشر ، ومؤيداته لا من القوة الخارجية وحدها بل من اعماق النفس والضمير الذي ايقظه وجعله يتحسس بالظلم ويعتبره منكرا يحاسبه الله عليه .

وبذلك اختلف الاسلام في حل مشكلة العدالة الاجتماعية عن المذاهب الروحية التي تركت الموضوع للضمائر وحدها وجعلت العدالة ضربا من الاحسان والصدقة الاختيارية وجعلت جزاء ذلك أخرويا فحسب . كما اختلف كذلك عن المذاهب المادية التي لم تعالج العدالة الا من خارج النفس وبالمؤيدات الخارجية ، واغرت الانسان ليقيم العدل ويثور على الظلم ، بما في نفسه من طمع وما فيها من رغبة في الحصول على العيش والحقد على من في يده ، لا بدافع الضمير الذي يتحسس بالعدل ويستنكر الظلم . واما الاسلام فقد عالج القضية في داخل النفس والضمير أولا فبعث في العقل والقلب شعور المسئولية امام الله والايمان بمساواة البشر واشتراكهم في نعم الله وجعل اقامة العدل واجبا يجاهد في سبيل تحقيقه بدافع من هذه العقيدة التي تملأ نفسه وبدافع من الشعور بالمسؤولية العظمى لا لأنه سينال هو نصيبا بنتيجة هذا الجهاد.

كما انه لم يهمل بعد ذلك المؤيدات الخارجية حين لا يكون عنها

محيص وجعل ذلك حقوقا لاناس وواجبات على آخرين لا مجرد تبرع وصدقة واحسان .

ويلاحظ ان الايمان بالله واقامة العدل كثيرا ما يقترنان في الكتاب الكريم وانهما محوران تدور عليهما الرسالة ، بل هما غايتها كما فهم ذلك العربي الفاتح المحرر : « **قل امر ربي بالقسط واقيموا وجوهكم عند كل مسجد** » .

ان الحضارة التي اقامهاالعرب الاولون من المسلمين كان نظامها ، القائم على العدل بين الناس ، مرتبطا ارتباطا وثيقا بهذه القيم الخالدة حقا والشعور العميق المتجاوب مع النفس والايمان بالله خالق الكون وبالمسئولية عن عمل الانسان المستخلف في هذه الارض في حياة ابدية خالدة .

وأستطيع ان استخلص من هذا الاستعراض :

١ — ان لنا تراثا قديما عريقا ، وأن المهم في هذا التراث ليس هو المظاهر الخارجية لحياتنا التي كانت تتبدل من عصر الى عصر وانما هو ما وراء هذه المظاهر من اتجاهات في أغوار النفس والعقل .

٢ — ان في العرب منذ عهد قديم اتجاها مثاليا انسانيا يتجلى في مكارم الاخلاق في الجاهلية وكان السبب في تقبل ما تقبلوه من اديان قبل الاسلام كالحنيفية دين ابراهيم والنصرانية ، ثم التقى وتجاوب في طور ثانمن حياتهمع الرسالة الإلهيةالتي نزلت على رجل منصميمهمومن لبابهم وخيارهم هو محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) فكان تجاوب تام بين ما جاء في الاسلام من صور المثل الاعلى الانساني كما صورته يد القدرة الإلهية وما تتطلع اليه نفوسهم في اتجاههـا الاخلاقي

الانساني . **وكان بين العرب كقومية وامة والاسلام كصورة للمثل الاعلى تلازم طويل تمثل في تاريخ حافل وفي حضارات اينعت واثمرت ونالت الانسانية كلها منها اطيب الثمرات**، وكان الاسلام في الوقت نفسه رسالة انسانية للبشر وصيغة صيغت بها مدنية العرب ومفاهيمهم للحياة وما وراء الحياة واتجاهاتهم الفكرية والنفسية . فكان للانسانية رسالة وشرعة ونظاما ، وكان للعرب في الوقت نفسه تراثا وتاريخا لا يمكن ان ينفصل عنهم او ينفصلوا عنه ، وكان أضخم قطعة من تاريخهم وأجمل وأسمى جزء من أجزائه ، به أطلوا على الانسانية فغنوا به كما يغني الشاعر في قصيدة واحدة أخص عواطفه الشخصية وأعم المشاعر الانسانية ، من خلاله نظروا الى الكون والى الله بل الى أنفسهم ، وبه انتقلوا الى مسرح التاريخ وقاموا بوظيفتهم على الصعيد العالمي الانساني وأصبحوا نواة لشعوب كثيرة أحاطت بهم كالهالة ، عن طريقهم عرفت طريق الحياة وحقيقة الوجود فدانت لهم من أجل هذا وحده بالولاء والحب على انهم الطليعة المحررة للبشرية .

لئن كان كل مسلم يعتبر الاسلام دينه الذي يدين به في هذه الحياة فان كل عربي ، مهما كان دينه مسيحيا كان أم مسلما ، ينظر الى الاسلام على انه تراثه القومي وتاريخه الضخم . وليس الوقت بمتسع لأقرأ لكم ما قاله كبار كتاب العرب من المسيحيين في هذا الباب كأمين نخلة وجميل صليبا والشاعر القروي رشيد الخوري ونبيه فارس وجورج انطونيوس وفيلكس فارس ... وغيرهم .

وأما وضع الاسلام في مقابل النصرانية في صورة خصمين متقابلين فلا أقول انه تفكير خاطىء بل آثم مجرم ، فكيف وهما من أصل واحد

ومنبع واحد اخوان تعاونا على الخير وتعاورا على الهداية وتناوبا على الحراسة . ألم يجعلهما القرآن معسكرا واحدا يفرح جزء منه بانتصار الجزء الآخر ؟ . « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

ان الغرب وحده ـ والذين تأثروا به في آرائهم ـ هو المسؤول عن هذا الاثم لسوء فهمه للنصرانية والاسلام معا وقصوره وعجزه حتى الآن عن ادراك معانيهما السامية .

ان المستشرقين من اليهود والمؤرخين المتعصبين من الاوربيين استغلوا العصور التي شوه فيها الاسلام حين زال العرب عن القيادة ، وأعطوا صورة عن عصور التشويه والانحراف التي اصيبت بها حضارتنا .

أما نحن فاننا نحارب الطائفية والعصبية الطائفية وخاصة بين المسلمين والمسيحيين من ابناء العروبة وبوجه عام ايضا لأن دياناتنا نفسها تكرهها فكيف والقرآن الكريم يقول :

(لا اكراه في الدين) .

(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) .

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم) .

وعلى هذا استطيع ان اقول :

ان الدين كان عاملا أساسيا في تكوين الامة العربية .

١ ـ في شكل تراث مشترك بين الاديان التي قامت فيها ، ويمكن ان يبقى كذلك هذا التراث المشترك بين الاسلام والنصرانية صعيدا نلتقي عليه في مقابل المادية الاوربية والوثنية الشرقية .

٢ ـ في الاسلام كتراث للعرب وثقافة وتاريخ .

٣ ـ في الحفاظ على الصلات مع شعوب نالت حظا من ثقافتنا واشتركت معنا في قسم من تاريخنا نظرت الينا كمعلم لها ومرشد وقائد، ومن المصلحة القومية بل الانسانية الابقاء على هذه الصلات وتنميتها .

وعلى هذا يمكن ان نرسم الخطوط العريضة الكبرى لتراثنا كما يلي :

١) ان لنا تراثا قديما عريقا يجب ان تميز فيه المظاهر الخارجية المتبدلة من الاتجاهات الثابتة المستمرة والقيم الخالدة .

٢) ان اتجاهنا الحضاري يقوم على القيم الاخلاقية والاعتبارات الانسانية ويجب ان تكون دوما هي الغاية في كياننا المادي والهدف لانظمتنا الخارجية والمادية .

٣) ان حضارتنا المتجددة تقوم على صعيد مشترك تلتقي فيه الاديان السماوية ، وخاصة الاسلام والنصرانية ، قوامه الايمان بالله وبمسئولية الانسان في حياة خالدة تتحقق فيها العدالة الإلهية ، والفضائل الاخلاقية النفسية . وهذه هي القيم الخالدة التي كانت أقوى المحركات الاجتماعية والنفسية لاقامة حضارة انسانية سليمة .

٤) ان الاسلام يؤلف الجزء الضخم من تاريخ العرب وتراثهم ، فهو عدا كونه رسالة انسانية عامة ودينا يدين به المسلمون في الارض تراث قومي للعرب على اختلاف اديانهم .

٥) ان حضارتنا ذات اتجاهات واضحة ومفاهيم محددة في ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والاخلاقية وليست ذات نظم مفصلة ثابتة نهائية ، فمجال الابداع والتجديد والملاءمة واسع مفتوح .

ان هذا التراث الذي لخصت خطوطه الكبرى :

١ — ينسجم مع الحياة ويتصل معها وليس روحيا سلبيا ، بل هو ايجابي نضالي .

٢ — يصلنا بينابيع شخصيتنا .

٣ — يوجه قوميتنا وجهة انسانية اخلاقية .

٤ — يقيم أنظمتنا المتجددة على اسس من النفس والضمير ، فيخلق الانسان والضمير قبل ان يخلق الآلة والنظام .

٥ — يمكننا من المساهمة في حل أزمة الحضارة ، وتقديم نموذج لحضارة مثلى بين نماذج الحضارات القديمة والحديثة المادية والروحية.

٦ — يعطي الامة العربية العناصر الاساسية لرسالتها ، الثابتة في اتجاهاتها الاساسية وقيمها الخالدة ، والمتطورة في صورها وأشكالها وظروفها ، ويعطي لكياننا القومي ، الذي هووجود وواقع، هدفا انسانيا ساميا ومثلا أعلى يجعله بذلك يقوم بدور هام على الصعيد العالمي .

ان الثورة أخذت « تعيد القافلة الشاردة الى طريقها » كما يقول الرئيس جمال عبد الناصر في فلسفة الثورة (ص ٤٩) ذلك انها :

١) حاربت الاستعمار بأشكاله المادية والمعنوية .

٢) كما حاربت الفساد والاقطاعية ، وكلها تتعارض مع تراثنا تعارضا اساسيا .

٣) انسجمت مع تراثنا في الوقوف دون الفلسفات المادية .

٤) استمدت نظامها الديمقراطي التعاوني الاشتراكي من اتجاهات حضارتنا ومقومات تراثنا .

ان الجمهورية العربية تسير بوعي عميق لتاريخنا وقوميتنا ورسالتنا نحو تحقيق أهداف حضارتنا الانسانية . واليكم ما قاله رئيسنا العظيم جمال عبد الناصر في هذا الموضوع مما يتفق وما قلناه اجمالا عن تراثنا الروحي :

(أيمكن ان تتجاهل ان هنالك دائرة عربية تحيط بنا وان هذه الدائرة منا ونحن منها امتزج تاريخنا بتاريخها ...

أيمكن ان تتجاهل ان هناك عالما اسلاميا تجمعنا واياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب وانما تشدها حقائق التاريخ ..... وليس عبثا ان الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامي الذي اغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الاسلام القديمة تراجع الى مصر وأوى اليها فحمته مصر ....

كل هذه **حقائق اصيلة ذات جذور عميقة في حياتنا** لا نستطيع مهما حاولنا ان ننساها أو نفر منها) .

وقال الرئيس أيضاً : (وما من شك ان **الدائرة العربية** هي أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا فلقد امتزجت معنا بالتاريخ .... وامتزجت هذه الدائرة معنا ايضا بالدين فنقلت مراكز الاشعاع الديني في حدود عواصمها من مكة الى الكوفة ثم الى القاهرة) .

وحين ذكر الرئيس **مصادر قوتنا** قال :

(وحين أحاول ان احلل عناصر قوتنا لا أجد مفرا من أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب ان تكون أول ما يدخل في الحساب . أول هذه المصادر : أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة المترابطة بكل رباط مادي ومعنوي ،**وان لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت**

في جوها الاديان السماوية الثلاثة ولا يمكن قط اغفالها في محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام . وأما المصدر الثاني : فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطة العالم ... والمصدر الثالث : هو البترول ...)

وتحدث الرئيس في فلسفة الثورة بعد ذلك عن مدى الفعالية الايجابية التي يمكن ان تترتب على تقوية الرباط الاسلامي بين جميع المسلمين ، وعن الامكانيات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا لا يخرج عن حدود ولائهم لاوطانهم الاصيلة بالطبع ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة .

ان الجمهورية العربية المتحدة نقطة انطلاق لتراثنا العظيم وامكانياتنا العظيمة ، وفي وحدة العرب وتحررهم وقوتهم خدمة كبرى للقضية الانسانية ، وان اجرام الاستعمار في تعويقها عن الوصول الى أهدافها اجرام بحق الانسانية جمعاء .

انني اعتبر أن تحرير البلاد العربية التي أصبحت الجمهورية العربية المتحدة في مقدمتها واجبا ليس على العرب وحدهم بل على الانسانية ، وان وحدة العرب وتحريرهم واقامة حضارة جديدة هو اعظم قضية تخدم بها الانسانية جمعاء ، وان الاستعمار في جميع صوره واشكاله مجرم ليس مع الامة العربية وحدها بل مع الانسانية لأنه يقف امام الامة التي تستعد لانقاذ الانسانية من التردي في مهاوي الفساد والطغيان والاستبداد . فعليكم ان تثقوا بمستقبلكم وتثقوا بعمق تراثكم وأفضلية هذا التراث بقيمه الخالدةوعناصرهالاساسية، فجاهدوا وناضلوا بقوميتكم فانكم تجاهدون في سبيل انقاذ الانسانية .

القوميّة والانسانيّة
العروبة والاسلام

ان الافراد في المجتمع الواحد لا يمكن ان يتكون من مجموعهم مجتمع سعيد منتج صالح للبقاء الا اذا كانت لهم غاية مشتركة يسيرون نحوها ، وهدف يجتمعون على تحقيقه ؛ اما اذا كانت غاية كل واحد منهم ان يكون هو وحده كل شيء في السعادة والمجد والمنفعة ، وفقدت الغاية أو الهدف المشترك ، وكان التنازع والصراع أساس التعامل بينهم، فان مآل هذا المجتمع التناقص والاضمحلال . وكيف يمكن أن يعيش مجتمع ليس بين أفراده حد ادنى من الاعتقاد بغاية مشتركة ، والعمل لهدف جامع ؟ وكيف يمكن أن يسير ويرقى وينتج حضارة اذا لم ينظر الى هؤلاء الافراد نظرة أساسها المساواة الانسانية من حيث الاصل ، واذا لم يفسح المجال أمامهم على أساس التكافؤ في الفرص والحد من طغيان القوي على الضعيف منهم ليقدم كل منهم ما يستطيع تقديمه للمجتمع من خير بحسب ما تؤهله له مواهبه وقدرته ؟

ان ما ذكرناه في الافراد ليعيشوا في مجتمع واحد ، ينطبق على الشعوب والقوميات ليمكن ان تعيش في مجتمع بشري عام وليمكن أن ترتقي الحضارة وتقدم الخير للناس أجمعين . ان الشعوب أو القوميات هي من البشرية اجزاؤها المكونة لها ، ولا بد لها منها كما لابد للمجتمع من أفراد ، وهذا هو واقع البشرية الذي لا ينكر ؛ فقد خلق الله الناس « **شعوبا وقبائل** » لا أفرادا منعزلين . ولكن البشرية لا تعيش سعيدة ولا ترتقي حضارتها اذا كانت الانانيات القومية وظلم القوي

منها للضعيف واستعلاء بعضها على بعض واستعباده هي القاعدةالسائدة والاساس الذي تقوم عليه ؛ اذ الحياة تصبح صراعاً عنيفاً بين الشعوب والقوميات ، وبدلا من ان تقدم كل منها ما تمكّنها مواهبها وقدرتها لتقديمه من خير للبشرية تنشغل في هذا الصراع الذي يستنفد قواها ويستغرق جهدها .

لا بد للقوميات لتكون مجتمعا بشرياً قادرا على انتاج الحضارة وافاضة الخير والارتقاء بالعلم من الاعتقاد بغاية مشتركة يسير الجميع نحوها ، وهدف جامع يعمل الجميع على تحقيقه ؛ ولا مانع حينئذ من التنافس ، ولكن في سبيل المسارعة الى تحقيق الهدف المشترك وبلوغ الغاية المشتركة . ومن هنا كانت أهمية العقائد ذات الصفة الانسانية العامة في ارتقاء الحضارة واحلال السلام والامن بين شعوب البشر . ان هذه العقائد الانسانية المشتركة بايجادها مواطن تلتقى فيها الشعوب واحلالها للسلم بدلا من الحرب ، تفسح المجال للقوميات لتظهر في مجالات الفكر والعمل وميادين الحضارة تتاج عبقرياتها ، وتنمي امكانياتها ، ويتعاون بعضها مع بعض ، فتبرز كل واحدة منها في الميدان الذي هو ميدانها وتكمل بعضها بعضا بما لكل من خصائص ومزايا ومواهب .

ان التعايش السلمي هو أدنى مراتب هذا التعاون ؛ اذ انه اقرار كل شعب بحق الشعب الآخر في أن يعيش بسلام وأمن ؛ ولكن التعاون الايجابي بين الشعوب والاقوام هو مرتبة أرقى في مدارج التعاون البشري والارتقاء الحضاري .

ان تقدم الحضارة الانسانية منوط اذن بوجودعقائد انسانية مشتركة بين القوميات ؛ ويستلزم ذلك بالطبع اعتبار المساواة بين الشعوب — من

حيث الاصل الانساني والمبدأ وفسح المجال امامها في فرص متكافئة دون أن يطغى قوي منها على ضعيف ـ أساساً ضرورياً للوصول الى هذه الغاية الانسانية المنشودة .

ان حرية الشعوب واعتبارها متساوية من الوجهة الانسانية ، وتقديم الفرص المتكافئة لها جميعا ، وفسح المجال لانتاجها واظهار عبقرياتها ومواهبها ، ووجود مبادىء انسانية وعقائد مشتركة بينها، شروط ضرورية لاستقرار السلام وانتاج الحضارة . وبالمقابل ان استعباد الشعوب بعضها لبعض واستعمارها وتمييز بعضها على بعض في الحقوق الاساسية والانانية القومية والتمييز العنصري والعقائد المبنية على العصبيات الجنسية ، كلها ترجع بالانسانية الى الوراء وتحل الصراع محل التعاون والحرب محل السلم وتؤخر الحضارة الانسانية والارتقاء البشري .

ان لكل قومية صيغة تصوغ في قوالبها الحضارة ، واتجاها تتجه في مسيرها نحوه ، ونظرة تفهم الحياة من خلالها ، وانتاجا ماديا أو معنويا تقدمه للناس ؛ وان أفضل القوميات هي تلك التي تقدم للمجتمع البشري أفضل حضارة وأحسن انتاج والتي تخدم بحضارتها وانتاجها الانسانية . فمن القوميات مالا تستطيع ان تخدم الا نفسها ، فنفعها مقصور على ذاتها ؛ ومنها ما يتعدى نفعها الى غيرها ؛ ومنها ما لاينتج الا الاشياء المادية الزائلة المستهلكة وان كانت نافعة ، ومنها ما ينتج الافكار ويبدع الاخلاق ويبعث الحضارات ويعين الشعوب . وههنا مجال التفاضل والتنافس بين القوميات . وكلما كانت العناصر الانسانية الخيرة أكثر في حضارة قومية من القوميات ، كانت تلك القومية وحضارتها من نوع أرقى وأسمى . والامجاد والمفاخر القومية انما تكون صحيحة سليمة ذات قيمة اخلاقية بقدر ما تكون انسانية في نتائجها وآثارها .

وان التطور البشري سائر نحو زيادة الرصيد الانساني المشترك والنقص من أثر الخاصة غير المشتركة .

فما هو نصيب العرب في الماضي والآتي من الحضارة الانسانية وما هو مدى مساهمتهم فيها ؟ وماذا قدموا للبشرية من نفع وخير ورقي ؟ وهل استنفدوا ما عندهم من امكانيات ؟ وما هي العناصر الانسانية العامة في الحضارة التي حملوها الى الناس ؟ وما هي المكانة التي تؤهلهم لها امكانياتهم من جهة وحضارتهم ورسالتهم من جهة اخرى في الماضي والمستقبل ؟

ان العرب منذ عصور قديمة نضجت عناصر تكوينهم ، وتظاهرت عوامل الاصل والوراثة وعوامل البيئة الطبيعية التي يعيشون فيها على هذا التكوين ، حتى كانت تلك الامة التي وصفها النبي العظيم صلوات الله عليه بقوله: «أنا خيار من خيار من خيار» والتي بلغت عقولها مرتبة عالية من الادراك الفطري واتجهت نفوسها نحو المثل الاعلى الذي تجلى في المروءة والشرف بما فيهما من عناصر الكرم والشجاعة والوفاء والعفة وان كانت أسرفت وأفرطت وضلت عن الهدف وانحرفت ، وكانت الجاهلية مزيجا من الحكمة الفطرية والمثالية ومن الاسراف والانحراف ، الى ان قضت حكمة الله في ان تخرج رسالة الاسلام من صميم الجزيرة ، وتهبط الحكمة الإلهية على النبي العربي ، وترتسم صورة المثل الاعلى الانساني الكامل بيد القدرة الإلهية في كتاب عربي مبين .

واننا هنا أمام حقيقتين تاريخيتين لا يمكن انكارهما بصرف النظر عن اعتقاد المسلم الديني في الاصل الإلهي للاسلام :

اولهما : ان الاسلام ظهر أول ما ظهر في صميم الجزيرة العربية ،

وكانت النفس العظيمة التي تلقفته وأعلنته للناس ودعت اليه من صميم العرب ومن خيارهم ، وانه بصرف النظر عن اصله الغيبي الإلهي تجاوب مع نفوسهم على بعد ما بين مستواهم والمستوى الذي رسمه للحياة ؛ ولئن صادم بعض عاداتهم فانه لم يصادم الاصيل من اتجاهاتهم والكريم من خصالهم والعميق من مشاعرهم . وان العرب بعد هذا اتخذوا من هذا الاسلام أساسا بنوا عليه حياتهم وجعلوه دستورا لهم بل أساساً ودستوراً لبناء انسانية جديدة أشرفوا هم على بنائها ، استطاعوا ان يحققوا فيها ، لا تعايش الشعوب والامم فحسب ، بل تعارفها وتعاونها ، فلم تضع ذاتيتهم ، ولم تذب قوميتهم ، بل كانت انسانية الصيغة في حضارتها واتجاهاتها ، وكانوا هم قوّاماً على هذه الانسانية التي أصبحوا يرون فيها امتدادا لشخصيتهم المعنوية وثقافتهم ورسالتهم ، وهكذا **كان نفوذهم وعملهم وفتوحهم ليس فرض قومية على اخرى ولكن نشر صيغة انسانية للحضارة** وتأسيسها والدعوة اليها عن طريق شعوب الامم الاخرى وجماهيرها . وهكذا كانت الحقيقة التاريخية التي لا معدىً عنها ان الاسلام غدا بالنسبة الى العرب أولا ، والى من تبعهم ودان بالاسلام ثانياً ، نظرتَهم الى الحياة ، وتصورهم للوجود ، والفكرة الشاملة التي اتصلت بعقولهم ونفوسهم اتصالا عميقا ، وكانت الناظم لهم أفرادا واجيالا حتى عرفت في العالم بهم وعرفوا بها ، ولا سيما بعد ان انبثق عن الاسلام حضارة شملت جميع آفاق الحياة الفكرية والنفسية والاجتماعية والسياسية وغيرها ، وكانت اللغة العربية لغة هذه الحضارة خلال التاريخ لانها اللغة التي بكلماتها وتعابيرها ظهرت الى الوجود رسالة الاسلام .

والحقيقة التاريخية الثانية هي: ان الاسلام في صورته الاصيلة ، قبل

ان تشوهها عصور الانحطاط والمفاهيم الاعجمية التي انحرفت في فهمه، تضمن القيم الخالدة من تراث الديانات والنبوات والاهداف الانسانية والغايات المشتركة بين الامم والشعوب ، وجاء بالمعتقدات التي تقيم انسانية تقر حرية الامم والاقوام والمساواة بينها وتفسح المجال لعبقرياتها وانتاجها على اساس التعارف والتعاون ، ورسم للانسانية الصورة الكاملة للمثل الاعلى الانساني الذي يتجاوب مع الفطرة ويطابق الحقيقة ، فوصل الانسان باعماق الوجود في جانبه الروحي ، وبعث فيه الوعي الكوني العام ، ووصله عن طريق الكون بما وراء الكون من قوة خلاّقة ، وأشعره بمسؤوليته العظمى أمام قوة الله هذه ؛ وعلى هذا الاساس الروحي الاصيل عمل على تكوين الشخصية الخلقية للانسان وفسح المجال لتقدم العقل وارتقاء الحياة المادية دون اعتبارها الغاية القصوى ، وبذلك حرر الانسان والبشرية من الاثرة والانانية ومن العصبيات القبلية والطبقية والجنسية ، ومن الخضوع للمال وللانسان صاحب المال أو السلطان ؛ وأقام بعد ذلك نظاماً يكافح فيه الظلم والفقر والجهل ويقام العدل والعلم والامن والعيش .

ان الامة العربية التي اشرفت في الماضي على تكوين حضارة انسانية وأدّت يومئذ رسالتها قادرة اليوم بل مسؤولة عن تكوين حضارة انسانية جديدة في ظروف جديدة وشروط واشكال جديدة ولكنها تحتفظ بالقيم الخالدة والاسس والمبادىء والاتجاهات .

ان يقظة العرب وقيام الامة العربية وتحررها وانبعاثها من جديد مصدر خير لا مصدر قلق او خوف لجميع الشعوب والقوميات الاخرى وللانسانية ولتقدم الحضارة وحسن توجيهها نحو الخير والحق والعدل ونحو الله مصدر الحق والخير .

حكمة اختيار العرب لتاسيس المجتمع الانساني

ان القرآن الكريم وان جاءت رسالته عامة ومبادئه انسانية اقتضت حكمة الله وسنته في هذا الكون ان يكون اول المخاطبين به وأول المبلغين له أمة بعينها وهم العرب ، فحمّلهم الله بذلك مسؤولية أكبر ، وأنالهم بذلك شرفاً عظيماً ، وهذا ما أشار الله اليه في قوله : **«وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون»** .

ان القرآن الكريم الذي تضمن مبادىء مشتركة لبني البشر صوّر الواقع كما هو ، وهو ان المجتمع البشري يتألف من جماعات لا من أفراد ، فالشعوب والاقوام هي الوحدات البشرية القائمة في حياة البشر ؛ والى هذا أشار الله تعالى في قوله مخاطبا للناس جميعاً :

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . فالناس يتألفون من أقوام وشعوب ، وكل شعب يتألف من أسر وقبائل ، والواحد من افراد البشر يرتبط بالاسرة والشعب الذي منه نشأ . هذا هو واقع البشر ، ولكن القرآن الكريم جعل لهذه المجموعة من الشعوب المختلفة والاقوام المتباينة هدفاً مشتركاً ، وأراد أن يسير هذا الواقع الموجود نحو غاية مشتركة ، وان يكون اختلاف الشعوب سبباً لتعاونها وتكاملها لا لتنافسها وتنابذها ؛ ولذلك أعقب ذكر الشعوب والقبائل بقوله (لتعارفوا) وقال في آية اخرى : **« وتعاونوا على البر والتقوى »** . وبذلك جعل المجتمع الانساني غاية المجتمعات القبلية والقومية وجعلها بذلك متحركة متطورة سائرة نحو غاية تتجه

نحوها ، وتلتقي عندها ، ووجّـه الى كل منها نداء ودعوة لان تتصف بصفـات ، وتؤمن بعقائد من شأنهـا ان تقرّب بينها ، وجعل بذلك طريقها واحداً ومسيرها في اتجاه واحد . فقد دعا الجميع الى الايمان بإله ليس خاصا بقبيلة أو شعب ، ولكنه الله خالق السموات والارض ، وما الشعوب والقبائل الا جزء ضئيل من خلقه ؛ والى عبادة الله وحده دون سائر الاهداف التي يمكن ان تكون معبودا خاصا لفئة من فئـات البشر . وجميع البشر يتصفون بصفة مشتركة هي كونهم عباد الله وخلقاً واحداً من جملة خلقه . كما دعاهم الى الايمان بأنهم مسؤولون امام الإله الخالق مسؤولية هي أعظم المسؤوليات جميعاً وأدقها ، وأقام على هذه العقيدة نظاما احتوى المبادىء العامة التي لا تختلف من شعب الى شعب ومن امة الى أمة ، كالشورى في الحكم والعدالة في الحقوق ومسؤولية الحاكم وحق الفقراء في اموال الاغنياء الى غير ذلك مما اختطه القرآن من مبادىء انسانية عامة تصلح لجميع الاقوام والشعوب .

وبذلك أقام القرآن رابطة جديدة هي **الرابطة الانسانية** وجعل الروابط الاخرى خادمة لها ومقوية ؛ كما أقام مجتمعا جديدا هو **المجتمع الانساني** وجعل المجتمعات القبلية والقومية متوجهة نحوه ، ومستهدفة غايته ، ومتضافرة ومتعاونة على تكوينه . وقد كان تبليغ هذه الرسالة التي هي أكمل ما يمكن ان يكون من الرسالات التي نزل بها وحي السماء الى الارض انما كان عن طريق امة اختارها الله للتبليغ جريا على سننه المطردة في الكون ، فقد قضت الحكمة الإلهية في أن يكون المبلّغ لخاتمـة الرسـالات من العرب وان يكـون ظهـوره من بينهـم وفي بيئتهم **« هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم »** ، والاميـون لقب أطلق على العرب لانهم لم يكونوا حملة كتاب ولم يعرفوا بكتاب سماوي .

وحكمة هذا الاختيار على ما نرى ان العرب ــ حين ظهور الاسلام ــ كانوا بين نوعين من الامم : نوع كان لا يزال ابتدائيا في تفكيره ومستواه كأنه الطفل في بدء نشأته ؛ ونوع تجاوز الشباب ، وتركزت فيه صفات سيئة ، وتردّى في مساوىء رسخت في نفسه ؛ ذلك ان الفرس كانت الملذات غالبة عليهم ، والجدل الكلامي والاساطير على اليونان ، والروحية الانعزالية على الهنود ، والروح الاستعمارية على الرومان ؛ اما العرب فلم يكونوا ابتدائيين في تفكيرهم وعاداتهم واخلاقهم كما انهم لم يتردّوا في مساوىء الامم الاخرى .

فقد **كان العرب يمتازون** بالروح العملية الواقعية البعيدة عن الانعزالية وعن الخرافية الخيالية ، وكانوا قد بلغوا مرحلة عالية من التفكير الفطري السليم وخاصة التفكير المتصل بالحياة العملية ، لا التفكير الجدلي أو الخيالي ، كما انهم كانوا بعيدين عن التهالك على الملذات المادية يحتقرون من يكون همه في الحياة الطعام والشراب ورغد العيش كما قال لقيط بن يعمر الايادي :

لا مترفاً ان رخاء العيش ساعده ولا اذا حل مكروه به خشعا
فليس يشغله مال يثمره عنكم ولا ولد يبغى له الرفعا

وقال الشماخ :

فتى ليس بالراضي بادنى معيشة ولا في بيوت الحي بالمتولج

فكانوا على فقر بيئتهم تدفعهم في حياتهم وتحركهم دوافع مثالية ، ولو كانوا على خطأ في تقدير المثل الاعلى أ والخير ، وهذا ما صححه الاسلام ؛ ولكنهم على كل حال على استعداد لان يضحوا المادة في سبيل المعنى وفي سبيل الخير .

ان هذا الاستعداد المثالي الذي كان عند العرب والذي كان ينقصه المثل الاعلى الانساني الصحيح هو السبب في اختيار العرب لتبلّغ الرسالة الإلهية الانسانية وتبليغها الى الناس .

ان العرب هم المخاطبون الاولون والنواة الاولى للاسلام ، فقد أوحي الى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بادىء ذي بدء (وأنذر عشيرتك الاقربين) ، (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) ، (ولتنذرَ أمّ القرى ومَن حولَها) تمهيدا لتعميم الرسالة (قل يا أيها الناس اني رسولُ الله اليكم جميعاً) ، (تبارك الذي نزّل الفرقانَ على عبدِه ليكون للعالمَين نذيرا) .

والعرب هم الذين اعطوا النموذج الاول لتطبيق الاسلام وتنفيذه في شكله الفردي والاجتماعي ؛ وقد كلفوا بتبليغ الاسلام الى الناس كافة فجاء الخطاب الكريم (انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) أي لعلكم تفهمونه حق الفهم فتبلغوه الى غيركم .

والخطاب الإلهي انما جاء بلغتهم **بلسان عربي مبين** ، ووفقا لاساليبهم، وراعى ما ألفوا فهمه ، ليستطيعوا ان يفهموه فينقلوه الى سائر الامم ؛ ولذلك لم يعتبر القرآن المنقول الى لغة غير العربية قرآنا بل يعتبر تفسيرا.

لقد حمّل الله العرب مسؤولية الرسالة الانسانية التي ضمّنها القرآن الكريم فأحلّهم محل المعلم المرشد والدليل القائد .

والعالم المتخبط اليوم في جاهلية جديدة ما بين مادية طاغية واستعمار أثيم باغ في الغرب ، وانحطاط وابتدائية في أمم الشرق بحاجة الى رسالة يتحرر بها من جاهليته ومادته .

محمد رسول الله وقومه

معنى الجاهلية ـ منزلة العرب ـ انسانية الاسلام

توالت النبوات والرسالات عبر العصور وفي الشعوب والامم ، واقتضت سنة الله في طبيعة الحياة الاجتماعية ان تختلف هذه النبوات والرسالات سعة وضيقا ، وتعسيرا وتيسيرا ، وقسوة ومرونة ، ومادية وروحية بحسب احوال هذه الشعوب ، ومراحل نموها ومستوى ادراكها. والاسلام من بين هذه الرسالات أشملها لنواحي الحياة ، وأرعاها لمصالح البشر على اختلاف أجناسهم وأممهم وأحوالهم ، وأدقها توازنا بين المادية والروحية والفردية والاجتماعية ، وأجمعها للعناصر الخالدة في الحياة، وللدوافع النفسية والضوابط الاجتماعية ، وافسحها مجالا لاعمال الرأي وارتقاء العقل .

فلا عجب بعد هذا ان تكون شخصية الرسول المبلّغ لهذه الرسالة متناسبة في سعة المدارك ونفاذ الفكر وعمق الوعي ورقة الشعور وتعدد الآفاق والميادين وسمو الروح مع آفاق هذه الرسالة وخصائصها ، وان يكون هذا الرسول بين الانبياء والرسل في المنزلة التي تقع فيها رسالته بين الرسالات والنبوات .

واذ كانت رسالة الاسلام انسانية عامة فان عبء تبليغها ونشرها بين الناس لا بد ان تقوم به جماعة منهم تكون قادرة على تفهم هذه الرسالة وادراك أهدافها ومراميها وتمثّل روحها وتقبّل تعاليمها واجادة تنفيذها.

وكذلك قضت حكمة الله أن يكون العرب ، قوم الرسول الكريم ،

هم أول المبلّغين وان يكونوا النموذج الاول الذي قام بالتجربة الروحية والاجتماعية ، ليكون هذا النموذج قدوة لسائر الامم ولجميع الناس ؛ وان يكونوا بعد ذلك هم الذين يبلّغون غيرهم رسالة الاسلام ويعلّمونها للناس ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا .

ان هذه الامة التي اصطفى الله منها رسوله الى الناس كافة ، وحمّلها أمانة التبليغ لغيرها ، لاجرم ان فيها من المزايا ما يؤهلها لهذه المنزلة التي أحلّها الله اياها .

ان عرب الجزيرة قبل الاسلام كانوا على منزلة عالية من ذكاء الفطرة وقوة الفراسة وسداد التفكير وان لم يكونوا أهل علم ودرس . كما كانوا أصحاب اباء وشمم ومروءة ومكارم ، يبذلون الاموال والارواح في سبيل ما يعتقدون انه شرف ومروءة ، وقد يغالون في اندفاعهم في سبيل الغايات المثالية حتى يقعوا في اسراف يؤدى بهم الى المساوىء ؛ فيضيّعون المال الكثير في سبيل ضيف واحد ، ويقتلون خوفا من الوقوع في العار أو طلبا للثأر . لقد وضعوا مواهبهم في غير موضعها وضلوا الهدف الذي يجب ان يسيروا نحوه وأسرفوا حتى وقعوا في النقيصة ، ولذلك وصفهم القرآن الكريم بهذه الاوصاف الثلاثة فقال عنهم ، انهم مسرفون : (أفنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما **مسرفين**) «سورة الزخرف » وانهم غافلون في قوله : (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم **غافلون**) « سورة يس » ، وانهم ضالون : (واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن **الضالين**) « سورة البقرة » . لكن هذه الاوصاف لاتدل أبدا على سوء الفطرة فقد قال الله تعالى مخاطبا رسوله الكريم صلوات الله عليه : (ووجدك **ضالا** فهدى) وقال أيضا : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن **الغافلين**) .

وخلاصة القول في العرب قبل الاسلام انهم قوة لم توضع في موضعها ، قوة في العقل وقوة في الخلق ولكنها ضلت سبيلها ، وانحرفت عن الوجهة المثلى ؛ وهذا ما ينطبق عليه الوصف بالاسراف والضلال ، ولو لم يكن في العرب هذا الاستعداد وتلك الفطرة لما اختار الله منهم رسوله ولما اختار منهم صحابة نبيه وتراجمة دينه وجعل منهم هداة للدنيا، لقد كانت تلك القوة محتاجة الى حسن استخدام واستثمار ، وكانت تلك المواهب في حاجة الى تزكية وتوجيه ، فجاءت رسالة الاسلام من الله لتصنع من هذه القوة الضائعة والمواهب المهدرة المعجزة الكبرى • ويؤيد هذا المعنى عدد من الآيات التي تشير الى اختيار الرسول العظيم من العرب كقوله تعالى : (لقد جاءكم رسول **من انفسكم**) وقوله : (لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا **من انفسهم**) • وقول الرسول صلوات الله عليه وعلى آله : « أنا خيار من خيار من خيار » بالاضافة الى قوله : « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » ، ويشهد له كذلك اشادته بحلف الفضول وبخصال بعض الجاهليين كحاتم الطائي •

ان تلك القوة البشرية الهائلة التي كانت تتمثل في العرب ، كانت قبل الاسلام أشبه بانسان خارق الذكاء نادر المواهب ، لم يستفد علما ينفع الناس به ولم تستثمر مواهبه فيما خلقت له من نفع المجتمع • واذا كانت هذه مواهب العرب ومزاياهم فقد حرص النبي الكريم (ص) على هداية قومه أشد الحرص كما تشهد لذلك الآيات الكثيرة كقوله تعالى : (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وقوله : (ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل) « النحل » وقوله : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم)، ولم يستنزل عليهم عذاب الله، كما

فعل من قبله من الانبياء، فهو الذي قال يوم فتح مكة: اليوم يوم المرحمة، اليوم يعظم الله الكعبة جوابا لمن قال : اليوم يوم الملحمة وطالما ردد : (اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون) . ذلك انه كان ينتظر منهم الخير العميم للبشرية وينتظر تحقيق وعد الله الذي وعده اياه (وانه لذكر لك ولقومك)، (لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) .

نعم ان العهد الذي سبق الاسلام جدير بأن يسمى **بالجاهلية** ؛ وهو الاسم الذي اطلقه القرآن والعرب أنفسهم بعد الاسلام على ذلك العهد. والجهل هنا بمعنى وضع الاشياء في غير مواضعها ، وعدم مراعاة ما تقتضيه الحكمة ، وليس معناه نفي العلم ، وقد قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لصحابي قال لآخر يا ابن السوداء : « انك امرؤ فيك جاهلية » . فالجاهلية عهد وضعت فيه قيم الاشياء في غير المواضع التي يجب ان توضع فيها ؛ وعلى هذا فليس معنى الجاهلية الانحطاط والوحشية كما ظن بعضهم ، كما ان اطلاقها على ذلك العهد صحيح لاغبار عليه لاينسب الى الخطأ في فهم ذلك العصر . ومن اصدق حكما من الله الذي سماه جاهلية في محكم كتابه (أفحكم الجاهلية يبغون) « المائدة » ، (اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) « الفتح » ، ومن رسوله الذي سماه كذلك بالاسم نفسه ، ومن الصحابة ، ابطال العرب الذين طالما تردد على السنتهم قولهم كنا نفعل كذا وكذا في الجاهلية .

لقد صنع العرب قبل الاسلام حضارات في بقاع مختلفة من أرضهم، ولكنها كلها كانت اقليمية محلية غير شاملة للعرب ولا عامة في جميع بلادهم ، وكانت مقتصرة على ناحية من نواحي الحياة كالصناعة والزراعة والتجارة ، فلم تكن ذات فكرة أو رسالة ، وكانت متأثرة بغيرهم من الامم

الاعجمية كالروم وفارس والحبشة ولم تكن عربية خالصة . وأول حضارة للعرب جمعت شملهم وعمت أرضهم وكانت عربية بالصبغة لا عجمة فيها ، وذات رسالة عامة قابلة للنشر والتعميم انما كانت بعد ظهور الاسلام وحملهم لرسالته . ولذلك فلا مجال مطلقا للمقارنة أو المقايسة بين حضارات العرب القديمة وحضارة العرب بعد الاسلام . فرسالة الاسلام التي جاءهم بها محمد صلى الله عليه وسلم نقلتهم الى الصعيد العالمي ، وجعلت لهم الاثر العظيم في تاريخ البشرية وتطورها . لقد كان من وراء حب الرسول لقومه حبه للانسانية جميعا ، فقد أراد الله له ان يجعل من قومه رسلا للخير ودعاة الى الحق وانصارا للعدل ومحررين للانسانية من العبودية ، ولم يضحّ بالحق والعدل والخير في سبيل قومه ، بل رفع قومه الى مقام الدفاع عن هذه المثل العليا الانسانية ، حتى أصبح مجد قومه ورفعتهم مجدا للانسانية كلها والدفاع عنهم دفاعا عنها . لقد جعل من قومه مجاهدين في سبيل تحرير الانسانية ورقيها ولم يسخر البشر لمجد قومه . وفرق كبير بين امة تنال المجد والذكر بما تقدمه للانسانية من خير ، وأمة تريد ان تفرض نفسها على البشر وتجعل من نفسها امة فوق الامم وتعمل لمجدها وحدها وتربي ابناءها على عصبية الدم واستعلاء الجنس وانانية الجماعة .

ان النبي العربي صلى الله عليه وسلم لم يعمل على اغناء قومه ونفعهم واعزازهم بافقار الشعوب الاخرى والاضرار بهم واذلالهم وان حصلوا على الغنى والعز والمنفعة .

ان ما في رسالة الاسلام من روح انسانية ومبادىء تقدمية للبشر وتعاليم اخلاقية وتشريعات عادلة هو الذي رفع من شأن العرب في العالم

وأحدث لهم ذكرا ومجدا لا يمحى على الدهر . ولذلك كانت الصلة بين العرب ورسالة الاسلام صلة ثابتة خالدة لا تنفصم عراها ، ولا يرضى بالفصل بينهما الا كل جاهل لتاريخ العرب وتاريخ العالم ، أو شعوبي حاقد ينقم على العرب فضلهم وينتقص من المنزلة التي أحلهم الله فيها .

ان الله اصطفى رسوله العظيم الى الانسانية من هذه الامة الكريمة ، وجعل هذه الامة العربية مسؤولة عن هذه الرسالة الانسانية لما آتاها من مزايا تؤهلها لذلك فقال في قرآنه العظيم : **(وانه لذكرلك ولقومكوسوف تسالون)** ولذلكخاطبهاأولافقال : **(إنا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)** ، ولكن هذه الرسالة التي حملوا عبأها انسانية عامة خالدة مع الدهر ، لما تحتويه من عناصر الخلود في عقيدتها الرائعة ومبادئها الخلقية والتشريعية : **(تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)** ، **(قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً)** .

القرآن والأمـــة العربيـــة

« انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »
« يوسف »

ان هذا القرآن العظيم الذي يتلى آناء الليل وأطراف النهار ، في جميع أنحاء العالم بلفظه العربي ، يحمّل الامة العربية قبل غيرها ــ واكثر من غيرها من الامم ــ مسؤولية عظيمة ثقيلة امام الله وأمـــام العالم ، وتحتاج هذه المسؤولية الى تنبه ووعي والى استعداد وعمل والى نضال وجهاد . ذلك أن هذا الكتاب الكريم الذي جاء بمبادىء انسانية فخاطب الناس جميعا دون تخصيص ، وذكر فيه الانسان أي انسان في مراحل خلقته واطوار تكوينه وفي طبائعه ونفسيته وأتى بمفاهيم انسانية للحق والعدل والخير فقال جل جلاله : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال : (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) وقال : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) . ان هذا الكتاب الانساني في تعاليمه ، العام في خطابه ، العالمي في دعوته ، قضت حكمة الله في ان يبدأ تبليغه لامة بعينها وان ينزل أولا في جوها ووسطها وبين أفرادها وان يصاغ بلغتها وتعابيرها وان تكون هي التي تعيه أولا ثم تبلغه للناس جميعا وتنقله الى العالم .

لقد كان شرفا للعرب في ان يكون منهم الرسول الذي تختم بـــه الانبياء وان يحملوا الرسالة التي هي خاتمة الرسالات ، وان تصاغ

الانسانية بلغتهم وان يجعل الله منهم حملة الفكرة أو العقيدة العامة ، والمبشرين بالمفاهيم الانسانية في الاخلاق والتشريع والحضارة ، وأن يكونوا في ذلك شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليهم .

ولقد أصبح بين القرآن ـ ذلك الكتاب الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ وبين الامة العربية صلة لا تفصم ورابطة لاتفك ، وهي الصلة بين **رسالة عالمية ، وأمة مبلغة ، ولغة معبرة** .

١ ـ لقد قضت ارادة الله أن يكون الرسول العالمي الانساني المبعوث رحمة للعالمين من هذه الامة العربية (لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) « آل عمران » قال البيضاوي في تفسير هذه الآية : من أنفسهم ، أي من نسبهم أو من جنسهم عربيا مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والامانة . وقال ابن كثير : أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به .

٢ ـ ولقد أمر الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه بأن يبدأ بعشيرته **(وانذر عشيرتك الأقربين)** . « الشعراء » وان يبشر بدعوته في مكة وما حولها أولا : (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا **لتنذر أم القرى ومن حولها** وتنذر يوم الجمع لاريب فيه) . « الشورى » .

٣ ـ ثم عمت الدعوة العرب كلهم ، وبُشّروا بما سيكون لهم بهذه الدعوة من مجد ورفعة وشرف ، بقيامهم بعبء تبليغ هذه الرسالة ، ونقل هذه الدعوة الخيّرة الانسانية التي جاء بها القرآن العظيم الى الناس كافة ، وقد قال الله تعالى في (سورة الزخرف) مخاطبا رسوله الكريم :

(**وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسالون**) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (قيل معناه لشرف لك ولقومك قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد واختاره ابن جرير ولم يحك سواه وقيل معناه : لتذكير لك ولقومك) قال ابن كثير : وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم كقوله تعالى : (لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) وكقوله تعالى : (وانذر عشيرتك الاقربين) . وسواء أكان الذكر في هذه الآية بمعنى الشرف والرفعة ــ وهو ماحصل فعلا للرسول صلى الله عليه وسلم وللعرب بسبب رسالة القرآن والاضطلاع بحملها وتبليغها ــ أو بمعنى التذكير فان في هذه الآية تخصيصا لقوم الرسول بالذكر والقاء مسؤولية ضخمة على عواتقهم ولذلك ختم الآية بقوله « **وسوف تسالون** » .

وقد وردت عدة آيات تتضمن تخصيص قوم النبي بالخطاب ، ثم تعميمه على الآخرين كقوله تعالى : (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه) . «الشورى» وقوله : (وأوحي اليّ هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) . «الانعام» .

٤ ــ وقد كان هذا البدء بالعرب قوم النبي طبيعياً اذ ليس من الممكن الميسور ان يبلّغ الناس جميعا في آن واحد ، وكيف السبيل الى ذلك وهم مختلفون في السنتهم ، ناؤون في ديارهم ؛ ولذلك نزل الخطاب بلغتهم ليتمكنوا من فهمه ، ثم دعوة الامم الاخرى الى مبادئه وتعاليمه ؛ ويفهم هذا من قول الله تعالى : (فانما يسّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) سورة «الدخان» ومن قوله كذلك : (انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) وتكرر هذا المعنى في آيات عدة منها قوله تعالى : (وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو

يحدث لهم ذكرا) . «طه» وقوله : (كتاب فصّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) .

وقد كان من حجة الله على العرب انه أنزله بلغتهم ليفهموه قال تعالى: (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصّلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) «فصلت» . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (أي لقالوا : هلا أنزل مفصلا بلغة العرب ولانكروا ذلك فقالوا : أعجمي وعربي ، أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لايفهمه هكذا روي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم) .

وقال تعالى في سورة الرعد : (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً) قال الزمخشرى أي حكمة عربية مترجمة بلسان العرب . فهل يمكن أن يفهم من هذه الآيات الكريمة الاّ ان الله أنزله بلغتهم ليستطيعوا فهمهوليعقلوه ويعلموه ثم ليبلغوه الى الناس كافة وفقا لما أمرهم الله . ولذلك كانت اللغة العربية ، وفهمها فهما عميقاً صحيحاً بمفرداتها وتراكيبها ومفاهيمها وأساليبها ، طريقا الى فهم رسالة القرآن وكان تعلمها واجبا على المسلمين لتوقف فهم القرآن عليها .

ولكن هذا القرآن ، الذي تضمن نظرة شاملة للحياة والكـون والاعتقاد بخالق أبدي منه البداية واليه المرجع والنهاية ، كما تضمن مسؤولية الانسان أيا كان عن اعماله ، واشتمل على مبادىء اخلاقيةوعلى نظام تشريعي مبني على أساس المساواة بين البشر ، ان هذا القرآن الذي تضمن هذه الدعوة الانسانية العامة ، لم يبدأ بالعرب لينتهيعندهم أو ليقيم تشريعا على أساس التمييز العرقي ، وهو الذي دعا الى المساواة

بين البشر قبائل وشعوبا ، ولكنه ابتدأ بهم ليحملهم امانة ثقيلة ، واختارهم الله لتبليغ رسالة عامة للبشر ، وليجعل منهم أمة معلمة مرشـــدة تقود الناس الى الخير والحق .

٥ ـ فالعقائد والمبادىء والنظم التي جاء بها القرآن لا تخص قوما أوجماعة ولكنها عامة للبشر ، وليس العرب الا مبلّغين ومبلّغين **(ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس)** «الحج» وبهـــذا نطق القرآن فأعلن عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: (قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً) «الاعراف» وقال **(وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)** «الانبياء» وفي سورة اخرى : (ان هو الا ذكرى للعالمين) وقال مصرحا بعموم رسالته الى الناس : (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً) «سبأ» وفي سورة الفرقان : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) .

وليس بعد هذه الآيات من شك في عموم رسالة النبي العربي صلى الله عليه وسلم وان من شرف العرب ان يكون النبي الذي خرج من بينهم رسولا الى العالم يحمل اليه من الله المبادىء الصالحة لتعاون البشر في انسانية سعيدة ، وان يكون بنو قومه هم حملة هذه الرسالة وأعوانه في تبليغها ، وأن تكون لغتهم هي المعبّرة عنها ، وبذلك انتقلوا الى الصعيد العالمي والمستوى الانساني ، وأصبحت كذلك لغتهم التي بها نزل القرآن لغة عالمية ، لغة حضارة انسانية .

إن هذا الشرف يحمّل العرب اليوم امانة ثقيلة ، وان رسالة القرآن الانسانية التي شعت من بلاد العرب وبلغتهم تحمّل المسلمين في اقطار الارض واجبا عظيما هو تحرير البلاد العربية وتوحيدها لانها الركيزة الاولى والدائمة لرسالة القرآن ودعوته الانسانية السامية .

قال العالم المفكر الهندي المعاصر الاستاذ ابو الحسن الندوي : (ان المسلم ينظر الى العالم العربي كمهد الاسلام ومشرق نوره ومعقل للانسانية وموضع القيادة العالمية) [1] .

ان اهمال ما للعرب من موقع في بناء الاسلام ، وما للغتهم وأساليبهم من منزلة في فهم شريعة القرآن ومبادئه جهل بالاسلام نفسه وتاريخه ومراحله ، وأضعاف للقاعدة التي يرتكز عليها ؛ وان فصل العرب عن رسالة القرآن ومفاهيمه ، هو فصلهم عن تاريخهم وعن حضارتهم وعن روحهم المتأصلة في نفوسهم ، وتشويه لشخصيتهم ، وأضعاف لقوتهم ، وهبوط بهم عن مرتبة القيادة العالمية ، ورجوع بهم الى مراحل متخلفة تجاوزوها ، ولا تزال بعض الامم التي تعتبر راقية متمدنة لم تبلغها حتى اليوم .

---

(١) كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ الطبعة الثانية ـ ص ٢٤٥ .

أثر صاحب الرسالة
في وحدة العرب وتوسعهم

موضوع القي في نادي الكشاف
السوري سنة ١٣٦٠ هـ .

اننا لنعجب اليوم كيف كانت ذكرى مولد الرسول العربي ، وهي ذكرى ثورة وحياة وايمان ، بعيدة كل البعد في هذه العهود المنصرمة عن أن تثير شيئاً من روح محمد صلى الله عليه وسلم القوية ومن تعاليم رسالته ، تلك الرسالة التي لا تقبل ظلم الظالمين واستغلال المستغلين وبغي المستبدين . فقد تلونت حفلات مولد الرسول صلى الله عليه وسلم في كل عصر بلون ذلك العصر ، وان لذلك قصة طويلة تخرج عن نطاق موضوعنا ، وانما أردنا أن ننبه الى ان بين ذكرى النبي العربي صلى الله عليه وسلم ووحدة العرب وشعورهم بالقوة والايمان علاقة متينة ، وهذا ما نريد أن نبحثه في هذه الكلمة .

معنى الوحدة والتوسع

ان لهذين اللفظين من الوجهة العلمية التاريخية معنى غير ما يفهمه جمهور الناس وعامتهم ، وهو معنى أدق وأوضح ، فلا بد من ايضاح هذا المعنى . فليست الوحدة ان يجمع حكم سياسي واحد عددا من الافراد في قطعة من الارض . فقد يكون الحكم السياسي واحدا ولا يكون بين الخاضعين له وحدة حقيقية ؛ فقد تختلف وجهاتهم وتتفاوت روحياتهم . وعلى العكس من ذلك فقد تكون الوحدة الحقيقية موجودة مع اختلاف الحكم السياسي كما هي الحال في البلاد العربية ــ أو في أكثر أقطارها على الاقل ــ في عصرنا الحاضر . فالوحدة السياسية غالبا من جملة مظاهر الوحدة ، ولكنها نتيجة عنها وليست سببا لها . فلو انك جمعت أشتاتا من الامم لا تؤلف بينها وحدة في الشعور الروحي وفرضت عليها

نظاما من الحكم واحدا فهل تظن انك بذلك تخلق بينها وحدة اذا كانت هذه الوحدة مفقودة ؛ اللهم الا اذا استطاع هذا الحكم المفروض ان يساعد ويعمل على نشوء هذه الوحدة الحقيقية . وانما وحدة الامة في شعور جماعة من الناس بانها تؤلف جسماً حياً واحداً يعمل جميع أفراده أعمالا منسجمة تؤدي الى تحقيق غاية واحدة . فاذا ما حصلت هذه الوحدة حصلت وتولدت جميع مظاهر الوحدة من سياسية واجتماعية وفكرية وكانت نتائج طبيعية لها والف اولئك الافراد شيئا جديدا يسمى أمة تتميز من غيرها تميز الاجسام الطبيعية أو الانواع الحية بعضها من بعض بخصائصها [1] .

وقد تقضي الشعوب زمانا طويلا حتى تصل الى هذه المرحلة ، فهي تتفاوت في سرعة الوصول اليها كما تتفاوت أيضا في خصائص الامة التي يؤلفها كل منها .

وان هذا الانسجام الذي تحدث الوحدة بحدوثه ويتولد من جملة الظروف الطبيعية والتاريخية ، يتجلى في فهم الحياة فهما متشابها حتى كأنه ضرب من الغريزة تتولد في عرق بشري فيقود افراده الى سلوك طرق متشابهة في الحياة وفهم الكون والحياة فهما متقاربا متشابها ، ويؤدي ذلك عمليا الى اندفاعات متماثلة تؤدى بسبب انسجامها الى غاية واحدة وتجعل هذه « الغريزة الموحدة » من الامة جسما حيويا مستقلا وتتولد عنها وحدة في العادات والآداب والتشريع والعقيدة والفكرة .

---

(١) لانوافق اصحاب الفكرة القومية من الاوربيين الذين يزعمون ان الفوارق بين الامم هي كالفوارق الكائنة بين الانواع الحية ، انما قصدنا بما اوردناه مجرد التشبيه والتقريب فقط لا متابعتهم فيما ذهبوا اليه من تطبيق نظرية الانواع على المجتمعات البشرية .

وكلما كانت تلك الامة أكثر انسجاما في جسمها الحي ، راقية الاعضاء والاجهزة ، موزعة الوظائف قائمة بها خير قيام كانت ارفع مدنية وأدت الى المدنية العامة خدمة جلى بنبوغها وعبقريتها وانتاجها في التفكير والنظم والمؤسسات .

هذه هي « مرحلة الوحدة » في تطور الامة . وتلي هذه المرحلة « مرحلة التوسع الحيوي » . فان الامم تتفاوت في الدرجات التي تصل اليها تفاوت الاجناس الحية في ارتقائها سلم الحياة . وأسباب هذا التفاوت راجعة الى الظروف الجغرافيةوالاجتماعية التي تمر بها [1] والتي قد تؤدي بها الى العقم أو الى الخصب ، ويكاد يكون في القضية شيء من الحظ المقدر لكل امة ، فان غريزة العرق والاتجاه الذي تتجه نحوه ودرجة الانسجام بين الافراد ليست واحدة في كل الامم .

وعلى هذا فليس التوسع بسط امة نفوذها بالقهر والغلبة على امم اخرى دون ان تستطيع تأليف جسم منسجم معها ؛ فالقوة وحدها لاتكفي لتوسيع نطاق الامة . فهذه الدول المستعمرة اليوم قد مر عليها في بعض البلاد العربية ما يزيد على قرن ولم تستطع ان تتمثلها ؛ ولو رفع الضغط قليلا لرأيت الانفصال السريع بين جسمين متباينين كل التباين فيروحيهما وغريزتيهما . فليس هذا من التوسع الحيوي في شيء ، وانما التوسع الحقيقي مرحلة تلي الوحدة تشعر فيها الامة بقوتها وتؤمن بظفرها ونجاحها ، واذا كانت ذات روح قوية تمثلت البشرية جميعا في نفسها وأصبح جسمها على حال من القوة والسلامة تمكنه من تمثل العناصر

---

(١) وينسب غلاة القومية ولا سيما الالمان هذا التفاوت الى امر غريزي ثابت في العرق لا الى ظروف خارجية سواء أكانت طبيعية او اجتماعية .

الاخرى تمثلا حقيقيا ليست القوة وحدها هي الاساس فيه ، وأصبحت قادرة على ان تكون مشرعة لنفسها ولغيرها ، وربما هديت للدستور البشري العام ــ او لدستور صالح لقسم كبير من البشر ــ تقف دونه الامم الاخرى عاجزة حائرة .

فلننظر الآن في أمر العرب : الى أي المراحل الحيوية وصلوا وماذا كان أثر الرسالة الاسلامية وصاحبها في ذلك ؟

العرب قبل الاسلام

الى أي مراحل الحياة وصل العرب قبل الاسلام ؟ وما هي قيمة مدنياتهم قبل الاسلام بالنسبة اليهم وبالنسبة الى المدنية العامة ؟

اذا اطل المؤرخ من شرفته على الزمن ورجع القرون القهقرى وجد ان العرب من اقدم الامم التي عرفت وأقواها . فاننا اذا القينا نظرة شاملة على تاريخهم وجدنا ان العرب أسسوا مدنيات قديمة متعاقبة تبتدىء بما ظهر في ما بين النهرين ثم تتلوها مدنيات تتعاقب خلال الزمن منتقلة من مقر الى مقر في اليمن وفي البتراء في الاردن وفي تدمر والحيرة والشام . هذا اذا لم نذكر الامم التي لايزال البحث في كونها عربية رهن التحقيق التاريخي . فكان ظهور العرب في خلال هذه الفترات التاريخية الطويلة كالينابيع تظهر في بقاع من الارض ، وكأنهم يطلون على الزمن من وراء حجب الغيب ليثبتوا للعالم وجودهم ولينظروا ان كان عملهم الاكبر في تاريخ العالم قد آن أوانه ، وكأن هذه المرحلة الطويلة من تاريخهم قبل الاسلام كانت مرحلة التهيئة والتجربة لرسالتهم الحاسمة في تاريخهم وفي تاريخ العالم .

واذا نظرنا الى حال العرب بعد هذه الآلاف من السنين التي مرت وحين

ظهور الاسلام وجدنا ان لهم مراكز أربعة أو خمسة يؤلفون في كل منها بيئة خاصة لها مميزاتها : (١) ففي الشام عرب الغساسنة وهم أهل حضارة ومتأثرون في الكثير من أحوالهم بالبيزنطيين ، (٢) وفي العراق عرب الحيرة أو المناذرة وهم متأثرون بعض التأثر بفارس ، (٣) وفي الجنوب في اليمن مملكة صغيرة مستقلة كانت لها مدنية قديمة ولكنها تعرضت لهجوم الحبشة وتأثير نفوذ الفرس فضعف شأنها ، (٤) واما الحجاز فكان يتألف من مدن تحضرت فيها بعض القبائل البدوية حتى أصبحت مركزا تجاريا دينيا . ويجري بين هذه المراكز والبيئات العربية مادة سيالة متحركة ، هي القبائل البدوية المنتشرة من أقصى الجزيرة في جهة الجنوب الى أقصى الشمال والشمال الشرقي منها . ولا بأس ان ننظر بعد هذا الى الحجاز خاصة لانها هي الارض التي ظهر منها الاسلام .

الحقيقة انه كان للحجاز في البلاد العربية موقع خطير جدا . ذلك انه البوتقة التي كانت تنصهر فيها القبائل العربية ، فتتحضر وتنقلب مادة من نوع آخر ، وهي صلة الوصل بين الحياة العربية البدوية والحياة الحضرية ، وهي بذلك تجمع الى محاسن حياة البدو ، من قوة ونشاط وحركة وتضحية واخلاق قويمة ، محاسن حياة الحضر من تنظيم وحياة نامية بعض النمو في الناحيتين الاقتصادية والدينية ، وتتجنب مساوىء البداوة من الفوضى والامعان في القتل واستمرار حياة الغزو ، بما وجد فيها من أنظمة دينية تقتضي السلم كنظام الحرم والاشهر الحرم ، وأنظمة اقتصادية وقضائية وان تكن بسيطة ، وتتجنب مساوىء الحضارة في الاستسلام الى الرفاهية والراحة .

وتجمع الى ذلك مزية خاصة بها وهي انها اقل البلاد العربية تأثرا

بالمؤثرات الاجنبية الاعجمية ، بل هي أصفى البيئات العربية الحضرية يومئذ جميعا .

بقي علينا بعد هذه النظرة الموجزة العامة ان نحكم على هذا الدور الذي سبق الاسلام من تاريخ العرب ، من حيث قيمته في تاريخ المدنية ومن حيث قيمته في تاريخ الامة العربية .

اما من الناحية الاولى فان التاريخ لم يعط بعد جوابه النهائي في هذا الموضوع ، أي أنه لم يجب بعد جوابا كاملا على هذا السؤال : ماذا خلفت المدنيات العربية القديمة من أثر في المدنية العامة ؟ ذلك ان هذا السؤال يتوقف على معرفة الامم القديمة التي يمكن ان تسمى عربية ، وهي ولا شك أكثر مما نتصور ونعرف الآن ، ويتوقف على تحقيقات اخرى لم تنته بعد ، ولكننا لا نشك بالاستناد الى ما وصلت اليه الابحاث التاريخية اليوم ان هذه المدنيات العربية القديمة كان لها أثرها فيما أتى بعدها من مدنيات يونانيةورومانية وفارسيةفي التشريع والادارة والعلم.

اما الحكم على هذه المرحلة بالنظر الى تاريخ الامة العربية ، وهي الناحية التي تعنينا الآن ، فيمكن تلخيصه بأن هذه الموجات العربية المتعاقبة ، وما ظهر للعرب من مدنيات ، تدل على انهم شعب قديم قوي أمتد على مساحة من الارض واسعة ، ورأى من الحياة ألوانا مختلفة من البداوة الى درجات عالية في الحضارة ، وكان لا يزال قبل الاسلام محتفظا بهذه الالوان المختلفة ، وخلّف آثاراً في المدنية .

ولكن لم تكن قد نشأت بعد وحدة عامة تشعرهم شعورا واضحا قويا بأنهم امة واحدة ، ولا ظهر بعدُ الشعور المشترك العام الذي يشملهم جميعا . فكانت مدنياتهم موضعية خاصة ، وفي كثير من الاحيان،

ولا سيما قبيل الاسلام ، متأثرة بتأثيرات اجنبية فارسية أو بيزنطية • لم يكونوا قد وصلوا بعد الى مرحلة الوحدة الحيوية التي أشرنا اليها ، فضلا عن مرحلة التوسع الحيوي • وبعبارة موجزة : لم تظهر بعد رسالتهم الكبرى التي تحتاج قبل كل شيء الى جسم حي متصل الاجزاء منسجم الاعمال والوجهات ، وذلك أمر لم يتم الا بالاسلام •

الاسلام

وهنا نقف باجلال أمام هذه المعجزة الإلهية التي قضى الله أن يجعلها في تاريخ العرب ، أمام تلك الرسالة التي شرفهم الله بها • ولا نشك في ان الله كما قدر ان يكون النبي منحدرا من أشرف الآباء ، قدر كذلك في أحكام غيبه ان يكون العرب من أشرف الامم وأطهرها ، ليجعل منهم حملة دينه وقرآنه « انا جعلناه قرآناً عربياً غير ذي عوج » وليخرج من بين أظهرهم أشرف رجل خلقه ، وحامل خاتم رسالاته وأوسعها وأعمها •

أسميها « **معجزة** » لانها في الحقيقة نقلت العرب بقفزة واحدة الى مرحلة التوسع الحيوي من حالة الجسم الذي لم تلتحم بعد اجزاؤه ولم تنضج حيويته • نقلتهم من الوحدات الحيوية المتفرقة الى حال الامة التي تشعر شعورا مشتركا لا انها متحدة فحسب بل ان عليها واجب قيادة الامم في شيء كثير من الايمان والقوة ومن غير غرور • هي قوة ولكن ليس غذاؤها الطمع والجشع ، وهو توسع وفتوح ولكنه ليس استعمارا ولا استعباداً •

ظهر الرسول والعرب موزعون من أقصى اليمين الى بلاد الشام والعراق كأنهم بقع مائية لاتكاد تصل بينها الا خيوط دقيقة جدا ، أو كأنهم تلك القطع السديمية الحائرة غير المتصلة ولا المنسجمة • وكانت

هذه الكتل العربية في حاجة الى من يجمعها ويقطع عنها التأثيرات الاجنبية التي تحيط بها ، ويفرض عليها نظاما يوحد ما بينها من اختلاف في النظم والتفكير والعادات . وقد كان أثر الاسلام وصاحب الرسالة أكثر من ذلك كله ، اذ انه ما اقتصر على هذا الجمع والتوحيد بل تجاوزهما الى مرحلة التوسع الحيوي ، الى مرحلة جعل فيها من العرب قواداً ومشرعين عالميين .

ويتلخص عمل الرسول وأثر رسالته في العقيدة والنظام الاجتماعي بابعاد كل تأثير أجنبي وجمع المراكز الحيوية المشتتة في مركز واحد ، والقضاء على جميع المراكز الموضعية المجزأة في بلاد العرب وتوحيد مفهوم الحياة عندهم جميعا . وان هذا التوحيد يتجلى في العقيدة والنظام الاجتماعي والديني .

فاما من ناحية العقيدة والعبادة فقد كانت في الجاهلية ملائمة للانقسام القبلي . فقد كان لكل قبيلة إله خاص بها ، وكان لبعض القبائل كقريش امتيازات دينية خاصة . وكانت الاديان الاخرى كالنصرانية واليهودية مشوبة بتأثيرات اجنبية ولهذا لم تنتشر في العرب . استبدل الاسلام بهذه العقائد المحلية أو الاجنبية عقيدة بسيطة كل البساطة واحدة عامة شاملة ، تلائم الحالة الاجتماعية الجديدة . فان الاعتقاد بإله عام واحد يقابله في المجتمع نظام اجتماعي واحد .

واذا نظرنا الى العبادة المتصلة بهذه العقيدة وجدناها قديما مشتتة . فهناك مراكز دينية مختلفة غير الكعبة . وقد قضى الاسلام على كل مركز آخر غير الكعبة ، ونسخ منها كل ما كان يتجه الى ما هو خارج الجزيرة، أو يذكر به فنسخ التوجه الى قبلة اليهود وجعل القبلة الى جهة الكعبة ،

فقلب الجزيرة هو القبلة . وأقر في العبادة كثيرا من الشعائر العربية القديمة ، ولا سيما في الحج ، مع الغائه منها ما كان له شكلا موضعيا أو قبليا . وأما قيمة هذه العقيدة وأثرها الكبير في المدنية فهو خارج عن بحثنا هذا .

هذا في العقيدة والعبادة . واما في النظام الاجتماعي فقد ألغى جميع النظم الموضعية المجزأة . فألغى نظام القبيلة وكل ما يتعلق به من تشريع وألغى قانوني الغزو والثأر والمسؤولية القبلية والمفاخر والامتيازات القبلية واستبدل بكل ذلك نظاما اجتماعيا وسياسيا يقوم على ركنين : الفرد والأمة .

واذا نظرنا الى العادات التي دعا اليها والتي قضى عليها وجدنا الاتجاه نفسه : الغاء العادات الموضعية والتنفير من العادات الاجنبية . ولهذا نجد في كثير من الاحاديث على سبيل التنفير مثل قول الرسول : « لا تفعلوا كما يفعل الاعاجم » . بل نجد قاعدة عامة في ذلك ينص عليها حديث مشهور : « خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام اذا فقهوا » . وأخيرا تم بالاسلام توحيد اللغة . فقد قضى القرآن على اللهجات المختلفة وأصبح كتاب العرب الوحيد ، وأصبحت لغته هي اللغة العربية دون سواها من اللهجات . وأعظم من ذلك الفهم التاريخي الذي يفرضه القرآن ويعطيه الاسلام عن نفسه ، اذ يبين انه تتمة لدين ابراهيم ، الدين الصافي الاول الذي عبد الله به في مكة . فالاسلام عودة الى صفاء هذا الدين واتمام له . وهذه النظرة التاريخية القرآنية تتفق وما قلناه في ابتداء البحث من اعتبار تاريخ العرب يبدأ بظهور أقدم مدنياتهم فيما بين النهرين .

والمعجزة في عمل محمد عليه السلام في كل ذلك هي انه لم يسلك للوصول الى هذه الوحدة طريق الكلام والوعظ المجرد ، بل كان ذلك نتيجة طبيعية لنشر عقيدة دينية ونظام اجتماعي .

وعلى هذا فاننا نستطيع ان نقول ان عمل الرسول وظهور الاسلام هو العمل الحاسم في تاريخ العرب والاول من نوعه الذي أدى الى تكوين أمة واحدة منهم تشعر بانها جسم واحد وتتحرك بحركة واحدة منسجمة ، مركزها قلب الجزيرة وتتجه الى خارجها بقوة . وهو فوق هذا جعل من هذا الجسم الحي المنسجم ، من هذه الامة ، امة مشرعة للعالم ، داعية مدنية وقائدة أمم . فلم يكتف بالمركزة والتوحيد بل تجاوز الى الحياة النامية المتسعة . وان في فهم العرب رسالتهم عامة خالدة ، موضوعة في دستور تريد ان تشرعه لجميع الناس لدليلا على ان العرب قدر الله لهم ان يصلوا الى أعلى ما يمكن ان تصل اليه أمة من الامم في الحياة . وان في ذلك ما يجعلنا دوما متفائلين لان العرب لم يتموا بعد رسالتهم ولم يصلوا بعد الى مرحلة الشيخوخة والهرم ، لانهم لم يكادوا ينشرون رسالتهم في مدى القرون الثلاثة الاولى في أصفى أشكالها وفي أرقى ما عرفه البشر حتى ظهرت عليهم الامم الاخرى ولم تفهم رسالتهم حق الفهم ، فتغيرت معالمها وتبدلت ، وظهر في الاسلام خصائص هذه الامم الاخرى في أشكال مختلفة . ففي السياسة ظهر المفهوم الفارسي الاستبدادي ، وفي النظام الاجتماعي اقطاعيتهم ، وفي الدين الصوفية الهندية ، وفي الناحية العقلية ثرثرة التفكير اليوناني والمنطق الجامد الفاقد للمرونة . ولكن بالرغم من كل ذلك ، ظلت رسالة العرب تعمل عملها في المدنية حتى في العصور المظلمة التي كان العرب فيها مقصون

عن السيادة. فمحمد صلى الله عليه وسلم اذن، بما نفذه وبلغه من الوحي الإلهي، وحد العرب وجعل منهم جسما حيا من الطراز الاول لا أعتقد ان أمة من الامم وصلت الى مثله . وان رسالة العرب لم تنته ولن تنتهي ، وهي رسالة حرة لا تقبل الاستعباد ولا القيود ، رسالة قـوة لا تقبل الذل والضعف ، رسالة شعور قوي وايمان بالله وبنصره ، رسالة طموح وسمو لاقناعة وقعود . فلنتخذ من ذكرى محمد صلى الله عليه وسلم ما يبعثنا على العمل لما عمله قبل كل شيء من توحيد العرب ، ثم دعوتهم لاتمام رسالتهم السامية في هذا الكون فان العرب باقون في الارض ما بقيت ورسالتهم رسالة الخلود .

البطولة العربية

بين المادية والمثالية

لا يزال يذكر الناس في دنيا العرب ، وفي اوساط الشعوب الاسلامية ، عدل عمر وحزم أبي بكر ومثالية علي وزهد عمر بن عبد العزيز وشجاعة خالد بن الوليد وحنكته في ادارة المعارك ، وكرم حاتم وحكمة زهير وشجاعة عنترة وجهاد صلاح الدين .

ان هذه الصفات خلدت اصحابها حتى عرف كل واحد من هؤلاء في جمهور العرب والمسلمين بصفته البارزة التي جعلته حيا في القلوب ماثلا في الاذهان .. قدوة لملايين البشر .

ذلك ان من خصائص هذه الامة العربية انها تقدر العمل لذاته ، وتخلد الصفة التي تستحق التخليد ؛ فلا تلتبس الصفة بالشخص فيقدس الشخص بدلا من الصفة ؛ وذلك خلافا للامم الاخرى التي التبست لديها البطولة بين الشخص والصفة والعمل ، فقدسوا الاشخاص وخلدوهم لذاتهم بدلا من تخليد صفاتهم ومكارمهم وكان لذلك عند غير العرب مظاهر واضحة من ذلك ما كان عند اليونان قديما ، وعند الهنود حتى في العصر الحاضر ، من تصنيف ابطالهم بعد موتهم في طبقة الآلهة؛ ومن ذلك تخليدهم لاجسامهم بتحنيطهم كما هي عادة الفرعونيين، او اتخاذ تماثيل لاجسادهم كما هي عادة الرومان واليونان قديما والاوربيين حديثا . بينما يتخذ العرب تماثيل في قلوبهم لمكارم ابطالهم

فلا يخلد البطل في لحمه ودمه ولون بشرته ومعالم جسمه وانما يخلد ذكره وتحمد افعاله قال حاتم لزوجته :

أماويَّ إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الاحاديث والذكر

وقالت الخنساء في اخيها صخر :

ترى الحمد يهوي الى بيتـه يرى أفضل الكسب ان يُحمدا

وقالت :

نعف ونعرف حـق القِرى وتتخـذ الحمـد ذخرا وكنزا

وهذا الالتباس بين الشخص والصفة التي تستحق التخليد موجود عند الامم غير العربية سواء اخذ التخليد معنى دينيـا او غير ديني .. ففي مجال الدين انقلب تكريم الاشخاص الصالحين والابطال لدى تلك الامم الاعجمية عبادة وضربا من الوثنيـة ونوعا من الشرك وتعـدد الآلهة ، حتى ان كثيرا من رجالات الاسلام من طبقة الصحابة او من بعدهم غدوا في نظر الكثير من ابناء هـذه الشعوب الاسلاميـة غير العربية في محل من التقديس يجعلهم في مرتبة تتجاوز البشرية واعتقد بعضهم تجلي الالوهية في كثير من هؤلاء سواء من آل البيت او الصحابة او رجال السلف الصالحين أو غيرهم ايضا وهذا ما حدث كذلك عند الهنادك والبوذيين وغيرهم .

وقد يأخذ هذا التخليد معنى غير المعنى الديني ولكنه يبقى مـع ذلك نوعاً من الوثنية والخضوع للبشر أو تقديس ناحيتهم المادية كما هي الحال بالنسبـة الى الغربيين من اهل اوربا وامريكا في تخليدهم لرجالاتهم من الاحياء او الاموات .

ان العرب بفطرتهم يميزون بين العنصر الخالد الباقي ، وهو الخلق

او الصفة الكريمة التي اتصف بها العمل كالعـدل والكرم ، والعنصر الفاني وهو الشخص نفسه بلحمه ودمه . ان البطولة في عمل خالد بن الوليد لا في شخصه ، فاذا عزل خالد فان العمل يجب ان يستمر ؛ وان وظيفة الرسول بتبليغ الرسالة ، فاذا مات وانتقل الى جوار ربه فان رسالته باقية والعمل بها مستمر (من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت) وقد كان لهذه النظرة أثر في حياتهم السياسية والادبية .. فشيخ القبيلة في الجاهلية والامير والامام في الاسلام يتبع ويطاع مادام على طريق الحق ، قائما بالقسط، فاذا انحرف او شذ ، او جار وظلم فلا طاعة له على الناس ، فطاعتـه ليست متعلقة بشخصه ولكن بوظيفته وخطته .. وقـد جاء الاسلام منسجما مع هذه الفطرة جاريا على هـذا السنن فلا يعبد الا الله .. ولا يكرم الرجل او يعظم الا لعملـه الصالح او جرأته في الحق او لعلمه . وقد حارب الاسلام اشد المحاربة الخضوع للامراء والاغنيـاء لمجرد غناهم او سلطانهم ، وعد ذلك نوعا من الشرك ودعا الى تكريم الفضائل في ذاتها اينما كانت وازدراء الرذائل انى وجدت .

ولذلك كان العرب بفطرتهم احسن الناس فهما للاسلام وقدرة على تطبيقه ، واحتاج غيرهم من الامم الاخرى الى تعلمـه وان يروضوا انفسهم بالتعليم والتربية والمران حتى يحسنوا تطبيق ما جاء به الاسلام، لغلبة الوثنية عليهم وتعلقهم بالاشخاص والاشباح . ومن مظاهر هذه الخاصة في ادب العرب ان القصة قائمة على معنى كريم او دائرة على مأثرة او مكرمـة فلا يذكر من الابطال او الحوادث الا مالا بد منه لتقوم القصة بمعناها وتؤدي غايتها ؛ على خلاف القصة في آداب الامم الاخرى فهي تقصد لما فيها من حوادث ومفاجآت واوصاف حسيـة

لابطالها والقصة في الادب العربي حقيقة لا خيال وهي عنـد غيرهم خيال . ذلك ان العرب يعيشون في حقائق الأخلاق ، ويعيش غيرهم في تخيلها وتصورها . وهذه الخاصة في تمييز العنصر المعنوي الخالد من العنصر المادي الفاني عند العرب سر من اسرار اختيار الله لهم لتبليغ رسالته الى الناس كافة دون غيرهم من الامم . ففي العرب استعداد وفطرة وفي الاسلام فكرة وتجريد وخلود ومثالية .

وقد هيأ الاسلام لهذه الفطرة العربية ميادين واسعة لتحقيق البطولة في ارفع اشكالها ومجالات انسانية لاظهارها في اسمى انواعها لتكون نموذجا تحتذيه الامم ومثالا تقتدى به الشعوب . فقد تحققت البطولة العربية في ميدان اكتشاف الكون وآفاقه ، واختراق البلدان والقارات في البر والبحر ، وتحققت خاصة **في ميدان تحرير البشر** من حكـامهم الظالمين وانظمتهم الفاسدة واهوائهم الضالة . تحققت في ميادين العلم والفكر . وفي آفاق النفس واستشفاف خطراتها ونزعاتها ومشاعرها . فكان العرب المادة التي اتخذها الاسلام لتحقيق مبادئه ؛ وكان الاسلام الفكرة التي حققت البطولـة العربيـة في اروع الاشكال واوسـع الميادين .

ان العرب اليوم قد عادوا سيرتهم الاولى . ليرفعوا من الرجال من يحقق لهم العزة والسيادة والحرية والقوة ولو خرجوا من غمار الشعب وهم يرون فيهم ابطالا .

وليخفضوا من أرادوا لامتهم الذل والعار ، وأرادوا بيعها في سوق الاستعمار الدولي وعبدوا الدينار وسجدوا لاصحابه ولو كانوا ملوكا .

ان روح البطولة العربية تستيقظ اليوم من جديد في كل واحد من

ابناء هذه الامة وليس قادة الثورات التحريرية الا معبرين عنها عازفين على قيثارتها نغمات الحرية والسيادة .

وان الذين حققوا النصر والمجد والعزة في العالم لامتهم العربية في الغابر لم يكونوا ملوك الغساسنة ، ولا ملوك المناذرة ، ولكنهم كانوا اولئك الذين لم يكن يعرفهم او يسمع بهم احد من الناس من قبل . ان الرسول العظيم ، اليتيم الفقير ، واتباعه واصحابه من ابناء الصحراء والبلد الحرام هم الذين جلبوا السعادة للعالم واكسبوا العرب شرف الدفاع عن المظلومين والمحرومين وحماية الحقوق ورد المظالم وتحرير البشرية فكان للعرب المنزلة العظمى عند الله والذكر الخالد في التاريخ .

وان المعارك اليوم امامنا لنرد عدوان المعتدين ايا كانوا ارضاء لله وتحقيقا لشرائعه كلها وتصديقا لحقيقتنا ودفاعا عن أنفسنا وعن تراث الانسانية الذي نحن حماته وحراسه ؛ وأما الاستعمار واجراؤه وعملاء الصهيونية فهم ناهبو كنزه ومخربو بنائه وصرحه .

مفهوم البطولة عند العرب

يختلف مفهوم البطولة من أمة الى امة اختلافا كبيرا . وللبطولة عند العرب معنى يختلف عن معناها عند الامم الاخرى ؛ ويتجلى للبطولة عند غير العرب مفهومان أو معنيان : **احدهما** مفهوم الغربيين الماديين قديماً وحديثاً . فالقوة والتغلب على الخصم بالحق أو بالباطل ، وتجميع الثروة والمال ، وفتح البلاد واستعمارها وتكوين الامبراطوريات الواسعة ، والذكاء والدهاء في أي طريق استعملا في الخير أو الشر في الاذى والنفع ؛ كل ذلك من البطولة ، ولو ان صاحبها أزهق الارواح وداس الحقوق وظلم الضعفاء واستعبد الناس . **ومفهوم آخر** عند الشرقيين الروحيين يتجلى في الزهد التام في الحياة ومتعها واضعاف الحواس والجسد ، ومقاومة الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها ، والوقوف من معارك الحياة سواء مع الطبيعة أو في المجتمع البشري موقفا سلبياً ، والفرار الى حياة روحية يزعمون خالصة .

اما مفهوم البطولة عند العرب ، فلم يكن في يوم من الايام قريبا من أحد هذين المفهومين ؛ قد تكون هذه البطولة ضيقة النطاق محدودة الافق في عصر ما كالعصر الجاهلي ، وواسعة النطاق متعددة الآفاق في الاسلام ، ولكنها كانت دوما من نوع واحد وطبيعة واحدة ومتجهة في اتجاه واحد .

ان البطولة عند العرب تتجلى في فعل الخير والاقدام عليه ، في

فعل المكارم والمحامد والمروءات . انها تتجلى دوما في تقديم ما ينفع الناس للناس ، وفي تقديم الخير سواء أكان هذا الخير مالاً يقدم أو علماً يفيد أو اعانة على حق أو اغاثة لملهوف . ولذلك كان لفظ الخير في العربية دالاً على كل هذه المعاني ، ولو جرّ ذلك الى خسارة المال أو غيره مما يعز على الانسان حتى نفسه ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

لقد تجلت هذه المعاني عند العرب في الجاهلية قبل الاسلام ضمن نطاق حياتهم القبلية ، وفي محيط الصحراء توارثوها جيلا بعد جيل كما قال شاعرهم :

سجية تلك فيهم غير محدثة ان الخلائق فاعلم شرها البدع

او كما قال الآخر :

فما يك من خير أتوه فانما توارثه آباء آبائهم قبل

لم يكن العرب ليتهالكوا كغيرهم على لذائذ الحياة ولو دنست شرفهم أو ادخلت الضيم والظلم على غيرهم ؛ وليسوا كاليهود وغيرهم من الامم الحريصة على الحياة بأي ثمن يقول المتلمس الشاعر الجاهلي :

ألم تر أن المرء رهن منية صريع لعافي الطير أو سوف يرمس
فلا تقبلن ضيماً مخافةميتتة وموتن بها جرا وجلدك أملس

والمال لا يكسب الانسان الشرف فقد ينال الشرف العظيم وهو فقير:

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلَق وجيب قميصه مرقوع

والعربي يدفع بفضله ، وهو كل ما يزيد عنده من مال أو جهد ، الى غيره ولا يبخل به فالمال انما يجمع لاداء الحقوق وصنع المعروف قال عروة :

دعيني اطوّف في البلاد لعلني افيد غنى فيه لذى الحق محمل
أليس عظيماً أن تلم ملمة وليس علينا في الحقوق معول

ولذلك كان المال عنده وسيلة لا غاية ، كما هو الآن في حضارات الغرب في أوربا وامريكا ، ولكنها وسيلة تصلح لان ينتفع بها وينفع بها الناس وليس رجسا يتجنب ويزهد فيه كما هي الحال عند الشرقيين؛ ولهذا فان زيادة المال لا تبطره ونقصه لا يذله ويفقر نفسه لان المال منوط به وليس هو المتعلق بالمال ، وقيمة المرء بنفسه وفضله لا بماله . يقول حاتم :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى وكلا سقاناه بكاسيهما العصر
فما زادنا بغيا على ذي قرابة غنانا ولا ازرى باحسابنا الفقر

والعربي يستمد معاني الخير هذه من منبع الخير ومصدره ، من الله الذي آمن به منذ عهد بعيد ولو شاب ايمانه في بعض الفترات شيء من الشرك أو الوثنية الداخلة عليه من الخارج ، وهو يعتقد بخلود الاعمال الصالحة يقول الحارث بن عباد :

كل شيء مصيره للزوال غير ربي وصالح الاعمال

ويقول امرؤ القيس :

والله انجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

ويقول النابغة :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الجود والاحلام غير عوازب

ولذلك فهو يفعل الخير لايثيبه الناس فان مرجع ايمانه بالخير والعمل الصالح الى الله . يقول قيس بن الاسلت في اسير عفا عنه :

اسرت مخلدا وعفوت عنه وعند الله صالح ما اتيت

ويقول عبيد بن الابرص :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

ويقول الحرثان بن الحارث العدواني :

ان الذي يقبض الدنيا ويبسطها ان كان اغناك عني سوف يغنيني

الله يعلمكم والله يعلمني والله يجزيكم والله يجزيني

فلما ظهر الاسلام ، وخرج محمد بن عبد الله صلوات الله عليه من بين أظهرهم ، ترسخت معاني البطولة هذه واتسعت آفاقها • وخرج العرب من صعيد اكرام الضيف في الصحراء وبذل الفضل وعمل المعروف في ذلك النطاق ، الى بذل الخير الاكبر الى البشرية في الصعيدالانساني• لقد وجد الاسلام في العرب دعامة راسخة ، واستجابة حاضرة ، واستعدادا قدره الله في الازل • لقد قضت حكمة الله فيأن « **يبعث في الاميين** »وهم العرب « **رسولا منهم** » ، وان يتخذ من العرب تراجمة دينه ، وحملة رسالته ، وشراح دعوته ، والنموذج الانساني الاول لتطبيق المبادىء الخالدة التي أرادها للبشر جميعاً • وان الذين يطعنون في العرب ويجعلونهم قبل الاسلام همجاً متوحشين منغمسين في الرذائل خالين من المكارم ؛ إنما يطعنون في حكمة الله واختياره ، ويطعنون في المعدن الذي منه خرج اشرف البشر وصفوة الخلق محمد رسول الله • بل يسفهون قوله ، وقوله أرفع من أن ينال منه نائل اذ يقول : « انا خيار من خيار من خيار » واذ يقول : « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » • لقد كان العرب في الجاهلية قوة مضيعة ،و فطرة طيبة أصابها في عهد الفترة بعض الشوائب،

فكانت تلك النقائص التي انتقدها القرآن وصححها . لقد ضلوا الطريق وهم سائرون ، وليس ضلالهم ترديا في السفاسف أو الخنا ، ولكنه حيرة وغفلة وخطأ اتجاه . قال تعالى في وصف رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: « **ووجدك ضالا فهدى** » لقد وجد العرب في الاسلام الفكرة المواتية لتزكية مواهبهم ، والتربة الصالحة لنمو مكارمهم ، والعقيدة العادلة التي تتجاوب مع نفوسهم ، فوعوها وحملوها وكانوا خير واع لها وخير داع اليها . وجعلهم الله المسؤولين عن فهمها وحملها ، مسؤولية مستمرة الى آخر الدهر لاتنفك عنهم ؛ ولا يمكن بغير هذا المعنى ان نفهم معنى قوله تعالى: « **انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** » . فهم الذين يعقلونه اذ نزل بلغتهم ، وهم الذين يبلغونه الى غيرهم قولا وفعلا ، وهم المسؤولون عن أنفسهم وعن الانسانية كما يسأل المربي والمعلم عمن عهد اليه بتعليمه وتربيته . « **وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** »

إن ما أوتي العرب ، قبل الاسلام ، من فطرة سليمة ، وما حازوا من المكارم والمحامد أصبح بعد الاسلام مصدر خير للانسانية ، ومعدناً تظهر منه البطولات الحقيقية في الافق الانساني الجديد لتقدم للانسانية نوعاً جديداً من البطولات الحقيقية التي ترقى بالانسان والانسانية دون ان يغادر فطرته وطبيعته ، ودون ان يفر من معركة الحياة نحو الغايات المثلى والحياة الخالدة . وبهذا الافق الجديد الذي فتحه الاسلام بفكرته وبهذه الوجهة التي حددها في آفاق الحياة اللانهائية جعل من بطولات علي وعمر وخالد وأبي عبيدة المحلية القبلية ، التي كانت تبيد مع رمال الصحراء بطولات عالمية خالدة .

مراحل البطولة العربية وخصائصها

نحن في أيام احوج ما نكون فيها الى ان نعرف أنفسنا ومكامن القوة فيها ، وان تتدارك تلك الهوة السحيقة التي فصلت بيننا وبين عهد البطولات من تاريخنا ، لنصل البطولات الجديدة بالسالفة ، والمعارك الحاضرة بالغابرة ، لنسير على مستوى أعلى قمة بلغناها ، متقدمين الى الامام نستقبل نصرا بعد نصر ، حتى نلقى الله وقد بلغنا الرسالة ، وادينا الامانة ، وحققنا قوله فينا (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) وقوله : (كنتم خير امة أخرجت للناس) .

نحن في حاجة اليوم لان نعرف تاريخ بطولاتنا ومراحلها وأطوارها وخصائصها وسماتها ، واتجاهها وغايتها .

لقد مرت البطولة العربية في مرحلة استعداد وتكوين قبل الاسلام ، وكانت المروءة رائدها ، والشرف مقياسها ، والوفاء والكرم والنجدة والشجاعة والشهامة اجنحتها . وكان العرب في ذلك العصر ، عصر الاعداد والتكوين ، كما قال شاعرهم :

يستعذبون مناياهم كأنهمُ لا يخرجون من الدنيا اذا قتلوا

وليسوا كاليهود الذين قال الله فيهم (ولتجدنهم أحرصَ الناس على حياة) .. لا يغدرون ، ولكنهم لا يقبلون الضيم ، ولا يقيمون على الذل والهوان :

انا نعف فلا نريب حليفنا ونجر في الهيجا الرماح وندّعي
ونخوض غمرة كل يوم كريهة تروي النفوس وغنمها للاشجع

ولكن البطولة العربية بقيت في هذه المرحلة منحصرة في صعيد الجزيرة العربية وفي اطار القبيلة أو بين القبائل ، وظلت بالنسبة للعالم ثروة مكنوزة ومعدنا مخبوءا لم يستثمر ، وبقيت معارك عنترة ودريدبن الصمة ومغامرات السليك وتأبط شرا احاديث تدور بين قبائل العرب ووقعة ذي قار على ما فيها من انتصار منفردة غير متلاحقة ، عقيمة غير منتجة . فلما ظهر الاسلام ونزل وحي السماء برسالة القرآن سجلت البطولة العربية مرحلة جديدة خصبة غنية :

فقد خرجت من صعيد الجزيرة الى الافق العالمي ، ومن الحوادث الفردية المنعزلة الى النطاق الاجتماعي والعمل المتصل المستمر المتجدد . وغدا العرب بالاسلام امة موحدة لا افرادا وقبائل فحسب ، يوحدها هدف تسير نحوه ورسالةواضحة المعالم تؤمن بها وتدعو اليها،وغدوادولة منظمة ذات قيادة واعية متجردة ، وأصبحت الحياة العربية في ظل الاسلام مدرسة لتخريج الابطال ، فكثرت البطولات والعبقريات ، وتوالت وتنوعت ، فابو بكر وعمر وعلي وابو عبيدة وخالد وأسامة وسعد وعمرو، ومن بعدهم محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وطارق وموسى ، وغيرهم من ابطال السلم والحرب في السنين الاولى من الاسلام ، هم قليل من كثير من اولئك الابطال الذين حرروا الشعوب يومئذ من ظلم المتحكمين والطغاة ، ونشروا لواء العدل في شعوب العالم المعروف في ذلك الحين.

ان من مزايا البطولة العربية في هذه المرحلة انها تعلقت بالقيم الخالدة التي هي : الايمان بالله والشعور بالمسؤولية الكبرى أمامه وبما

يوجبه ذلك من اقامة العدل بين عباد الله والمساواة بينهم وحماية الضعيف وتحريره من ظلم القوي .

ومن مزاياها انها كانت مشاعة بين الناس غير محتكرة لاحد ، فلا خلود ولا قدسية لاحد من الناس ، فما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وما خلفاؤه الا قادة يتبعون ما داموا سائرين على سنن الحق ، ويطاعون ما داموا ينهجون طريق الخير ، والعبرة لجمهور الامة وللجماعة (كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ، (ولتكن منكم أمة" يدعون الى الخير ...) فليس يُدرى من سيكون من بين الناس البطل ومن سيحمل الراية ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وليس محتكرا للاغنياء أو ذوي الانساب أو أبناء الملوك ، فكان الوعي العام والايمان المنتشر في القلوب أرضا منبتة للبطولات .

ومن مزايا البطولة العربية في هذا الطور انها ذات هدف واضح وغاية انسانية ، وهي تحرير البشر ، لا الامتياز أو الاستعلاء أو التفاخر بالمساحات المفتوحة وبعدد القتلى والاسرى . فالمعارك المتلاحقة في اطراف الارض يومئذ ، والتي كانت مظهرا لبطولات كثيرة ، كانت معارك تحرير انساني في سبيل المستضعفين في الارض من الرجال والنساء والولدان .

لقد كانت البطولة العربية درسا نموذجيا لشعوب العالم ، تعلمها الانسانية والمثل العليا ، وتنقل اليها الفضائل التي كانت تحملها في نفوسها ، والمبادىء الاخلاقية التي تلقتها من وحي السماء ، لتجعل هذه الفضائل وتلك المبادىء مشاعة بين امم الارض وشعوبها .

ان التقاء المبادىء المنزلة من السماء في رسالة كاملة ختمت بها الرسالات وتجاوبها مع الفطرة العربية التي أعدها الله أحسن الاعداد جعل من البطولة العربية النموذج الكامل الذي يصلح أن يكون للعالم مثالا يحتذى ، فكانت في تاريخ العالم مثارا لعبقريات وبطولات في مختلف الشعوب جاءت على مثال البطولات والعبقريات العربية التي اتخذتها اماما وقدوة ومثالا ، فكانت البطولة العربية بالاسلام سبيلا الى توحيد الشعوب على صعيد انساني وفقا لهذا النموذج الرائع .

ولسنا نقول هذا لنكتفي بالقول ونغتر بفعل الماضين من الاجداد والسلف ، فتلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم .

والبطولة العربية اليوم في مرحلة ثالثة ، فهي تستيقظ بعد غفوة ، وتنهض بعد كبوة ، وتتحرك بعد ركود .

لقد احلها الابطال من جنود محمد مكان الصدارة من العالم ، واقاموها مقام المعلم المرشد والدليل الهادي من الشعوب . هي اليوم تثور لتخرج نفسها من منزلة التبعية لمن كانوا لها تابعين ، ومن الخضوع لمن كانوا لها خاضعين ، ولتتحرر من الاباحية والظلم والانانية والمادية والعصبية التي حررت هي العالم منها من قبل . انها اليوم في مرحلة التحرر من الاستعمار والخضوع ، والاستعباد والتبعية ، ومن الظلم والاثرة ، ومن الوثنية والمادية . ان الثورات تتلاحق وتتابع ، والمعارك يسطع لهيبها في كل بلد ، معارك مع الاجنبي المستعمر الممثل لظلم القياصرة ، ومعارك مع الحكام الخونة الموالين له الجاحدين لفضل الله على امتهم .

ان البطولة العربية تبعث اليوم من جديد لتسمو الى القمة التي كانت بلغتها واشرفت منها على الانسانية ولتكمل بعد ذلك سيرها الى الامام ..

مدرسة البطولات ومخرج الأبطال

في مساء ذات يوم من بضع سنين دخلت حديقة كراتشي العامة ، وكان الظلام قد دب في الفضاء وأسدل أثوابه السود الرقيقة في الارجاء واذا بي أسمع صوت عجوز هندية تقول بلسان عربي : اللهم صلي على سيدنا ومولانا محمد . فخشع قلبي ، واعترتني قشعريرة سرت في جسمي كموجة الكهرباء ، وقلت في نفسي : بعد أربعة عشر قرنا ، وعلى آلاف الاميال من الحجاز ، وفي هذه البلاد التي طالما عبد أهلها الاصنام وقدسوا الحيوان ، في هذه البلاد الاعجمية اللسان ، يرتفع اسم محمد ويدوي في الفضاء ! ما هذه العظمة التي دونها كل عظمة ! تنفق الامم اليوم الاموال الوفيرة وتسخر الرجال في سبيل الدعاية ، ثم لا تحصل على نتائج تذكر بالنسبة الى هذه النتيجة التي حصلت ، على بعد الزمان والمكان ؛ هل في الدنيا اليوم أحد لم يصل اليه هذا الاسم العظيم الجميل ؟ وسواء آمن به أم لم يؤمن ، فانه لا بد ان يبعث في نفسه التعظيم أو الاعجاب أو الحب .

لم يعرف تاريخ العرب فترة خصبة بأنواع البطولات كهذه الفترة التي أعقبت قيام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالته ، ولم يعرف العرب عهدا وزعوا فيه على العالم البطولات وكانوا قدوة للآخرين فتخرج على غرارهم أبطال من شتى الامم كهذا العهد الذي تلى نهوض محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم برسالته .

لقد غدت الجزيرة العربية ، ولا سيما الحجاز ، في عهد الرسالة مدرسة للبطولات ومنبتاً للابطال والعظماء ، تخرج منها أبطال عالميون انتشروا في الارض وشقوا في الحياة طرقا جديدة تسير فيها الاجيال .

لقد غدت الجزيرة العربية مدرسة لتخريج الابطال من كل قوم وجنس ، وكان للعرب الشرف في ان أقيمت هذه المدرسة في أرضهم وبيئتهم واتخذت لغتهم لغة لها .

ان باني مدرسة البطولات الخالدة ومخرج الابطال في حياته وبعد انتقاله هو ذاك الذي كان في مرتبة فوق البطولات وفي قمة لا ترقى اليها نفس بشرية ، هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . لقد انشأ الرسول العظيم جيلا من الابطال والعظماء ، وفي عصر لم تكن فيه المواصلات ميسورة ، ولا وسائل الانتقال والسفر موفورة ولا سريعة ، استطاع تلاميذ محمد ان يفتحوا من البلاد ، في فترة قصيرة جدا ، وان يحرروا من العباد ، في الشام والعراق ومصر وفارس والهند ، ما يعتبر تحرير قسم صغير منه اليوم من العدو الغاصب ، وتوحيد شطر منه تحت راية واحدة ، بطولة ما فوقها بطولة . ان أقصى ما يبلغه العظيم منا اليوم ، الجدير باعجابنا واكبارنا ، ان يكون متبعا لخطى تلاميذ محمد العظماء ، وان يكون تلميذا بارا ناجحا من تلاميذ الرسول العظيم عليه صلوات الله .

فهل تجد في تاريخ العرب قديمه وحديثه من ترك للعرب في العالم ذكرا يقرن بالخير والتقدم والمثل العليا كما ترك ابن عبد الله ؟ فكل ابطال التاريخ العربي من قادة وفاتحين ، ومصلحين ومجددين ، ومحررين ومنقذين ، ليسوا الا أتباعا وتلاميذ ، ومقلدين مقتدين ، وآخذين بطرف أو ناحية من نواحي عظمته ، وناهلين من ينبوعه الثر الفياض .

وهل عرف الناس في تاريخ العالم انسانا ساواه في عمق أثره في نفوس البشر ، وامتداده في بقاع الارض ، واستمراره خلال العصور ، وفي سعة آفاق عظمته وتعدد مناحيها ؟

لئن كانت رسالته قد بدأت بقومه فقد تجاوزتهم الى امم الارض والى أفق الانسانية الرحب ، ولئن ظهرت رسالته في عصره فانها لم تقف عنده بل تجاوزته الى العصور المتوالية من بعده ، وقد مضت القرون وأثر هذه الرسالة لا يزال مستمرا خالدا .

ولئن كانت نقطة الانطلاق في رسالته اصلاح النفس وتطهيرها ، فان خطة الاصلاح لم تقف هناك ، بل تجاوزتها الى اصلاح المجتمع ، بأسرته وروابطه ، بنظام اقتصاده وطريقة حكمه وأساليب تربيته .

لم يعرف التاريخ رجلا ترك هذا الاثر العالمي في شعوب الارض واممها ، في تطهير معتقداتها ، ورفع مستوى تفكيرها ، وتحريرها من الخرافات والعبوديات ، واشعارها بكرامتها الانسانية ، وتكوين شعور انساني أوسع من القبيلة الضيقة والقومية المغلقة والعصبية الخاصة ، كذلك الاثر الواسع العميق المستمر الذي تركه النبي صلى الله عليه وسلم .

لهذا فلا مجال للمقارنة بينه وبين أية شخصية عربية أو غير عربية في كل زمان ومكان ، ولا يجوز الموازنة والمقايسة بينه وبين غيره من رجالات العرب او الامم الاخرى مهما جلوا وعظموا . لقد أقام الله منه شاهدا على العرب يشهد بحملهم للرسالة وتبليغهم للامانة ، كما أقام من العرب شهداء على الناس ليعرفوا انصياعهم للحق وصدودهم عن الباطل (ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس)

فلئن كان الخطاب الاول لعشيرته (وانذر عشيرتك الاقربين) وانذاره لقومه (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) فان رسالته عامة (وما أرسلناك الا كافة للناس) ، (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ،) (ليكون للعالمين نذيراً) ، (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً) .

ان عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ليست نبوغاً شخصياً أو تميزاً بالمواهب والخصائص فحسب ، ولكنها أيضاً اصطفاء من الله واختيار منه لرسوله ، انها فوق العظمات الدنيوية والبطولات الارضية ، انها رسالة من السماء ونبوة ، والنبوة في العربية من الارتفاع والسمو ، من نبا الشيء اذا ارتفع ، أو من الاخبار بما وراء هذا الوجود الظاهر من النبأ وهو الخبر ، انها النبوة التي كانت ينبوعا تنهل منه البطولات ، والرسالة التي كانت مصدرا للعظمات وسببا للرفعة والذكر .

انها خالدة لانها من صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى ، ولانها صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، ليست من صنع عقل متحول ولا من ابداع فيلسوف تبلى فلسفته ، ولا نتيجة عبقرية تمضي مع زمانها ، انها اصطفاء من الله ، واتصال بين الخالق المقتدر العليم ونفس مختارة ارتفعت الى أعلى ذرى البشرية وقممها (انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً) «الاحزاب» .

واذا كان الناس في مشارق الارض ومغاربها يرددون اسم محمد مترنمين ، يجلونه في قلوبهم ويكبرونه بعقولهم ، فمن أولى من العرب باعلاء ذكره ، والتغني بحبه ، والتأسي بسيرته ، والتمثل بمبادئه وتعاليمه وتصديقه في قوله .

فعليك يا محمد صلوات من ربك وتحيات من قومك ، والى دعوتك ترنو أبصار الانسانية المعذبة وترتفع أصواتها المختنقة بالعبرات ، لتحررها وتفك اغلالها وتحل قيودها لتنطلق بعقولها وقلوبها نحو الله في آفاق كونه الرحيب .

منطقة الثقافة العربية في العالم

ان أهم مزايا الامة العربية أن شخصيتها من الناحية الثقافية تتجاوز حدود أرضها وابنائها الى رقعة واسعة من العالم ، وانها حملت الى الناس ثقافة انسانية تلقفتها شعوب كثيرة وتأثرت بها امم واجيال . فالثقافة العربية لا تزال حتى اليوم مصدرا واصلا لثقافات كثير من الامم اتخذت من العربية مصدرا لاغناء لغاتها واستعملت حروفها ، واتخذت تاريخها تاريخا لها تستوحي منه القيم والمقاييس ، ومن الكتاب العربي المبين أساساً لعقيدتها وتفكيرها . فماذا تشغل هذه الثقافة العربية اليوم من العالم وأي موقع لها في العصر الحديث ؟ .

ان العالم ينقسم اليوم الى مناطق ثقافية ، كما يقسم الى قارات وألوان وأقوام ؛ والمنطقة الثقافية تشمل في الغالب عددا من الشعوب والامم ؛ ويسود كل نوع من الثقافات والعقليات رقعة من الارض تتسع كثيرا أو قليلا . ففي العالم اليوم ثقافة غربية يمكن ان تنقسم كذلك الى (سكسونية) ، وتعم الولايات المتحدة وانكلترا وشعوبا اخرى في الغرب والشرق ، و (لاتينية) وتشمل فرنسا وايطاليا واسبانيا وامريكا الجنوبية ، و (جرمنية) وتعم المانيا والنمسا وبعض البلاد المجاورة لها ؛ وقد عرف العالم الذي تسود فيه هذه الثقافة بالعالم الديمقراطي الغربي .

وفي العالم اليوم ثقافة اشتراكية ، تختلف بمقاييسها الفكرية ، ونظمها الاقتصادية ، وقيمها الخلقية ، ومفاهيمها الفنية والادبية عن الثقافة الغربية ؛ وقد انتشرت هذه الثقافة في القرن الاخير في رقعة واسعة

من الارض ، واتخذتها شعوب وامم ثقافة لها ؛ وتحمل دولة الاتحاد السوفييتي المؤلفة من عدد من الاقوام والشعوب لواء هذه الثقافة .

وفي آسيا **ثقافة شرقية** تلتقي فيها ديانات وتعاليم وثنية المظاهر والشعائر ذات اتجاهات روحية وأخلاقية متقاربة كالبوذية والبرهمية وغيرها ، وقد اطلقنا على هذه التعاليم والمبادىء التي لا تؤلف في الحقيقة وحدة متماسكة اسما واحدا هو الثقافة الشرقية تجوزا لتشابه أجزاء هذا العالم الشرقي بالنسبة الى العوالم الاخرى .

الى جانب هذه المناطق الثقافية ، منطقة ثقافية واسعة الرقعة ، متميزة الشخصية ، واضحة المعالم ، هي **منطقة الثقافة الاسلامية** التي قوامها وأساسها الثقافة العربية ؛ وهي منطقة تشمل شعوب العالم الاسلامي ، ويقع معظمها في قارتي آسيا وافريقيا ، في موقع متوسط بين الشرق الاقصى من جهة واوربا وامريكا والغرب من جهة أخرى . وللامة العربية الفخر بأن تكون حاملة لواء هذه الثقافة ومنبعها الاول ، وان تكون لغتها هي اللغة الاساسية المعتمدة فيها .

وتمتاز الثقافة العربية بالنسبة للثقافات الاخرى بانها ثقافة محررة ، فانها كانت وسيلة لتحرير الشعوب من الخرافات والوثنيات والعصبيات والمظالم وطريقا الى ايقاظ الوعي في الشعوب . أما الثقافات الاخرى فقد اقترن دخول بعضها الى البلاد التي دخلتها بالاستعمار ، وكانت الثورات التحررية الاستقلالية ثورة على هذه الثقافة نفسها . واقترن بعضها الآخر بنظام معين للحكم ، فرض تلك الثقافة على البلاد التي اقيم فيها . ولذلك فان الثقافة العربية لم تذهب بذهاب سلطان العرب من البلاد التي ساسوها ، ولا زالت بزوال نظام معين من أنظمة الحكم ، بل

بقيت مستمرة متجددة ؛ لان لها قيمتها الذاتية ، ولانها انسانية في قيمها ومبادئها ، قابلة للتعميم على شعوب الارض .

ان حدود دائرة هذه الثقافة العربية هي حدود العالم الاسلامي ؛ وتشمل تلك الشعوب التي اتخذت من كتاب الله الذي نزل بلسان عربي مبين أساسا لعقائدها وتفكيرهاوثقافتها . والقاعدة الاساسية التي استقرت عليها شاعت وانتشرت منها تلك الثقافة هي البلاد العربية وشعبها الممتد من أقصى العراق الى أقصى مراكش ومن شمال سورية الى جنوب الجزيرة العربية . ومن هذه الشعوب من دخل في اطار هذه الثقافة بمجموعه أو كثرته الغالبة كالافغان والاندونسيين والملايويين والاتراك والايرانيين والالبانيين ، ومائة مليون ونيف من سكان القارة الهندية ، التي انشطرت الى باكستان ، وفيها الكثرة من المسلمين ، والهند وفيها نحو اربعين مليونا منهم ؛ أضف الى هؤلاء جميعا ملايين من الاقليات الاسلامية المتفرقين في أنحاء الارض ، ولا سيما في بلاد آسيا واوربا وافريقيا كالفيليبين وبورما وسيلان ويوغوسلافيا واليونان .

وليست هذه الشعوب والامم على درجة واحدة في التأثر بالثقافة العربية ، والاخذ بها والمساهمة فيها ؛ فانك تجد في الباكستان والهند مثلا من يعيشون في جو الثقافة العربية ؛ وتجد فيهما من المدارس والمعاهد والمؤسسات والحلقات والمكاتب ودور النشر ما يجعلك تعتقد انك في جو عربي خالص . لقد زرت مع زملاء لي[1] بعض بلاد آسيا

(١) كان ذلك في اواخر عام ١٩٥٧ واوائل عام ١٩٥٨ لحضور الندوة العالمية للدراسات الاسلامية التي انعقدت في لاهور ؛ وللقيام برحلة في آسيا بتكليف من وزارة الخارجية السورية يومئذ . وكان الوفد في هذه الرحلة الاخيرة مؤلفا من الاستاذ عمر ابي ريشة والاستاذ نهاد القاسم والدكتور احمد السمان .

فوجدنا شواهد رائعة تثبت ان هذه الثقافة حية نشيطة . ففي كراتشي معاهد منها المدرسة العربية الاسلامية وفيها يدرس الحديث والتفسير واللغة العربية بنحوها وادبها باللغة العربية ويقوم عليها علماء اجلاء . وزرنا في لاهور عالماً جليلا له من المؤلفات في اللغة العربية ما يزيد على عشرين مجلدا ، وهو ينظم الشعر بالعربية وفيها مدرسة لاهل الحديث نشرت كثيرا من كتب الحديث ، كما شاهدنا مدرسة للبنات في ضواحي لاهور فيها الفا طالبة يقرأن القرآن وينشدن الاناشيد العربية ويتبعن في حركات الرياضة الايعازات باللغة العربية ؛ واصغينا الى خطيب مفوه يخطب بالعربية في شاه مسجد في لاهور مؤيداً سياسة الحياد التي تتبعها البلاد العربية المتحررة من نفوذ الاستعمار ، مستنكرا سياسة الحكام المتعاونين مع الغرب ، ووصفهم بانهم لا يمثلون ارادة الشعب . وشاهدنا كذلك في الهند علماء اجلاء من القليل في حقهم أن يقال انهم يجيدون العربية فمن بينهم شارح المعلقات السبع بالعربية والاوردية ومنهم المؤلفون في تفسير القرآن وفي غير ذلك من المواضيع اللغوية والعلمية . وفي الهند معاهد اسلامية كبيرة كندوة العلماء التي ينسب اليها عدد كبير من العلماء والمؤلفين ، ودار العلوم وندوة المصنفين للتأليف والنشر وجمعية علماء الهند ، وغيرها من المؤسسات والمعاهد ؛ وقد اجتمعنا بعالم جليل ألف في السيرة مؤلفا بالعربية على نمط جديد مبتكر .

ولو ذهبت شطر بلاد الافغان لوجدت انه مهما حصل من التجديد في التعليم والثقافة فان الثقافة الاسلامية تبقى قوام ثقافتهم وأساس تعليمهم ، وفي اندونسيا يكثر المتعلمون للعربية المجيدون للكلام والكتابة فيها ؛ وفيها معاهد اسلامية عالية عديدة على أساس الثقافة واللغة العربية وفيها ما هو خاص بالبنات .

ولو ذهبت الى بلد كيوغسلافيا فيه اقلية من المسلمين لوجدت مالا يخطر ببالك ، وقد أهداني استاذ في بعض جامعاتها كتابا باللغة العربية الفه مؤلفه بعد الحرب العالمية الاولى ؛ وهو يوغسلافي من البوسنة يتضمن تراجم علمـاء المسلمين اليوغسلافيين وأدبائهم واسمه الجوهر الاسنى في تراجم علماء وشعراء البوسنة وهو مطبوع بمصر .

وفي يوغسلافيا حتى الآن مدارس تعلم العربية والدين لتخريج الائمة والخطباء ولسنا الآن بصدد استعراض مراكز الثقافة العربية في العالم الاسلامي ولكننا ذكرنا ما ذكرناه على سبيل الاستشهاد .

ان للثقافة العربية المنتشرة في انحاء العالم وشعوب العالم عناصر أساسية لا بد منها أولها : القرآن الكريم ولا تقتصر دراسة الكتاب الكريم على حفظه وتلاوته أو على كونه مادة أساسية لاقامة الشعائر ؛ فان أثره الفكري واضح في البلاد الاسلامية ، فهو يقرأ في العربيـة ويقرأ مترجما مفسراً بشتى اللغات ، وهو مصدر للمفاهيم والافكار والمعتقدات ، وقد تأثر به العامة والخاصة من ابناء الشعوب الاسلامية ؛ ونهل منه الشعراء والمفكرون واعتبروا أنفسهم عرباً في التفكير ، وان كانوا أعاجم في التعبير ، وفي هذا المعنى يقول اقبال ما ترجمه الصاوي الشعلان الى العربية بقوله :

انا أعجمي الدنّ لكن خمرتي صنع الحجاز وروضها الفينان
إن كان لي نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان

ولا تزال الشعوب تقبل على تفسيره في لغاتهم ونقله بالمعنى اليها ، كما تفعل اليوم جمعية انشئت لهذا الغرض في بورما يرأسها السيد رشيد أحد الوزراء الحاليين في حكومتها ؛ على أن العناية بحفظ القرآن

بنصه العربي شديدة في العالم الاسلامي ؛ وقد لقينا ولداً لاحد علماء الباكستان يحفظ القرآن عن ظهر قلب مع تجويده وعمره ثلاث عشرة سنة ، كما لقينا رجلا غنياً خصص من أمواله أربعمائة الف روبيةلتزويج حفاظ القرآن .

ومن عناصر الثقافة العربية : اللغة العربية بشعرها ونثرها وقواعدها ومفرداتها ؛ فهي موضع عناية ودراسة في جميع أقطار الارض ، وخاصة في الهند والباكستان والافغان واندونسيا ؛ وقد أثرت مفرداتها في جميع لغات الشعوب الاسلامية على تفاوت بينها ؛ وقد اتخذوا منها اصلا يستمدون منه ما يحتاجون اليه من الالفاظ للتعبير عن المعاني الجديدة ، ففي الاوردية والفارسية والتركية الفاظ عربية كثيرة جداً ؛ كما ان بعض هذه الشعوب اتخذت الحروف العربية لكتابة لغتها ، فسهل عليها بذلك تعلم العربية كالاوردية والملايوية والفارسية .

ومن عناصر الثقافة العربية التاريخ ، فان التاريخ يدرس في الشعوب الاسلامية من وجهة النظر نفسها التي تنظر منها الامة العربية ، وبالمقاييس والمفاهيم نفسها ، فتأخذ منه المثل العليا والقدوة الصالحة ، وتنظر الى شخصياته وعصوره بالنظرة نفسها ، وفي هذا ما فيه من توحيد الافكار والاهداف والعواطف .

ومن عناصر الثقافة العربية التفسير والحديث والفقه وغيرها من العلوم الاسلامية . فهذه العناصر التي تؤلف بمجموعها الثقافة العربية هي أساس الثقافة في كثير من الامم والشعوب ، والكتب المؤلفة في هذه العلوم المختلفة ، ولا سيما المشهورة منها ، هي المرجع الذي يرجعون اليه ويأخذون منه وتتكون من حولها ثقافة باللغات القومية المختلفة ، تنهج المنهج نفسه وتنسجم مع الثقافة العربية .

ان هذه الثقافة العربية والاسلامية تكون عامل اتصال بين شعوب كثيرة ، تتشابه في الكثير من أوضاعها العامة ومشكلاتها الاجتماعية ، وتقف الامة العربية موقف المعلم والدليل المرشد ، وتنافس بذلك أقوى امم الارض وأوسعها نفوذاً في المجال الثقافي .

ان عالم الثقافة العربية وهو العالم الاسلامي هو المجال الحيوي الاجتماعي للامة العربية ،والصعيدالانساني المشترك لامم وشعوب كثيرة.

وتحتل اللغة العربية في هذه المنطقة الثقافية المنزلة الاولى ، فهي اللغة المشتركة بين شعوبها . وتخلق هذه الثقافة العامة السائدة في هذا العالم روابط فكرية واتجاهات شعبية مشتركة ، وتكون تقويتهاوتوسيع دائرتها سببا في ايقاظ هذه الشعوب واكمال تحررها واستقلالهـا ، واسقاط الحكام المرتبطين بالاجانب والمستعمرين .

ان هذه المنطقة امتداد للشخصية العربية من الناحية الثقافيةوالفكرية وان روابطنا بها كما قال الرئيس جمال عبد الناصر في فلسفة الثورة « لا تقربها العقيدة الدينية فحسب وانما تشدها حقائق التاريخ » . فلا يجوز للامة العربية ان تتخلى عن مسؤولياتها ، وان تحل عرى روابط هي التي أوثقتها في عصور طويلة من التاريخ ، لتقوم بواجبها في اسعاد نفسها واسعاد الانسانية وتحريرها ، واقامة حضارة تسير نحو الكمال في جميع آفاق الحياة .

معركة الجزائر

معركة الجزائر وآفاقها

لقد كنت أعلل ثورة الجزائر المستمرة حين كنت فتى يافعاً بازدياد ضغط المستعمرين وبالحقد المتوارث جيلا بعد جيل في أبناء الجزائر على باغ مغتصب • ولكن الحقيقة أبعد مدى مما كنت ظننت ، والدوافع أعمق مما كان خيل اليّ ؛ فإن المرء لا يستطيع ان يفسر توالي الثورات في الجزائر وبطولة المجاهدين واصرارهم على ادراك النصر ، واصرار الفرنسيين وامعانهم في جرائمهم وعنادهم ، الا اذا عرف خطورة هذه المعركة بالنسبة لنا ولهم : بالنسبة للمغرب وافريقيا ، وبالنسبة للعالم الاسلامي وحضارته ، ولدول آسيا وافريقيا الناهضة من جهة ، وبالنسبة لعالم الاستعمار من جهة اخرى •

١ ــ ان في تحرير الجزائر من الاستعمار تحريرا كاملا للمغرب العربي كله ، فان مراكش وتونس وليبيا لا تزال واقعة تحت النفوذ ، ولا يزال المستعمر يخدرها بأنواع من المخدرات ليبقي فيها نفوذه ويعللها باستقلال منقوص وسياسة مثلومة وان كان أهلها يسعون لبلوغ الاستقلال الكامل [1] •

٢ ــ اما بالنسبة لافريقيا ، فان تحرير المغرب كله يؤثر تأثيرا فعالا حاسما في وضع افريقيا • وافريقيا هي المرجحة لاحدى كفتي الميزان ،

---

(١) وقد سارت هذه البلاد بخطى كبيرة نحو الاستقلال التام في جميع المرافق .

والصراع بين فكرة (أوربا ـ افريقيا) و (آسيا ـ أفريقيا) هو من أشد أنواع الصراع في هذا العصر ، وان انضمام شعوب أفريقيا الى اخوانهم من شعوب آسيا يقضي نهائيا على الاستعمار ويغير خارطة العالم وحالته الاقتصادية .

واذا تحرر المغرب العربي فان له صلة وثيقة بالبلاد الواقعة في جنوبه ، وفي هذه البلاد بعض الجاليات العربية الاصل ، كبلاد تشاد ، وقد اشتد أثر المغرب في تلك البلاد منذ القديم ، فان المغاربة نشروا الاسلام في الشعوب الافريقية الذين أضحت بينهم وبين البلاد العربية رابطة وثيقة ، وقد عمل الاستعمار لمقاومة هذا النفوذ عن طريق البعثات التبشيرية التي لا غرض لها الا توطيد الاستعمار وهي أبعد ما تكون عن نشر رسالة المسيح السمحة رسالة الحب والاخاء .

ان استقلال المغرب العربي ونهوضه يؤدي حتما الى اتمام الانسجام في شعوب افريقيا واستعراب شعوبها عن طريق دخولها في الاسلام .

واذا اجتمعت قوة المغرب العربي وقوة مصر في الشمال الافريقي ، القوة المادية والمعنوية ، وتم الاتصال الطبيعي وزالت الحواجز المصطنعة فقد تم النصر نهائيا للعرب وشعوب الشرق ، وزالت بذلك سيادة شعوب اوربا ، بل أن أوربا تصبح في حالة خوف من هذه الكتلة المخيفة التي تتصل بما وراءها من العالم العربي والاسلامي والشرقي ، ولا ننسى مافي المنطقة من ثروات اقتصادية ضخمة .

٣ ـ ان هذا الوضع بالنسبة للامة العربية يقيم أساسا متينا من الاستقرار . فان المغرب العربي والشمال الافريقي يكون الجدار الغربي بالنسبة للامة العربية ، فالمغرب هو الحد الفاصل بين الشرق والغرب ،

وهو خط الدفاع الاول ، خط المرابطة على الحدود سواء من الوجهة المادية والمعنوية .

لقد كان لهذا الخط تاريخ في التقدم والانحسار يمثل تاريخ العرب والحضارة الاسلامية تقدماً وتأخراً .

لقد كان المغرب نقطة التقاء نوعين من الامم والحضارات. فلقد وصلت الموجة العربية تحمل مبادىء العدالة والهدى والعلم في رسالة الاسلام الى اواسط فرنسا ، ثم استقرت حقبة من الزمن في اسبانيا فخلفت علما وحضارة ، ثم انحسرت مرة اخرى الى المغرب حيث استقرت وألقت بجرانها ، وأصبح المغرب الوارثَ لملك العرب وحضارة الاسلام وثقافته في مقابل الغرب وارث الرومان في روحه وحضارته ، الغرب الوثني في روحه ، المادي في حضارته ، ولو اتخذ من مسوح النصرانية شعارا ولكنه كان أعجز من ان يفهم — وهو الوثني — رسالة المسيح وروح النصرانية ؛ ولذلك كانت الحقيقة ان الروم الذين قاتلوا العرب في اليرموك والقسطنطينية هم الروم الذين قاتلوهم في اسبانيا ثم في المغرب وقاتلت حضارتهم المادية ونفعيتهم الاستعمارية البعيدة عن المسيحية ، حضارةَ الروح المتمثلة في الاسلام ، الخلف الحقيقي للمسيحية .

ان انتصار ثورة الجزائر هو انتصار للعرب وللحضارة التي تحمل طابعهم ويحملون طابعها .

لقد كانت بيننا وبين الروم موجات من الكر والفر :

انتصرنا في اليرموك والقسطنطينية وفي شمال افريقيا واسبانيا . ثم انحسرنا عن اسبانيا ، وهجم الروم علينا في ارض المغرب وحكموها هذا القرن الماضي ؛ والآن وقد زالت دولتهم ونهضنا بعد كبوة ستكون

لنا الكرة عليهم ، وليست كل هذه المعارك الا معركة واحدة متصلة بين العرب والروم . اما نحن فقد شدنا في بلادهم ، في اسبانيا معاهد وجامعات ، ونشرنا علما وأدبا ، وخلفنا ثقافة وفناً ، وأقمنا عدلا ، وحمينا المعابد والكنائس ، ودافعنا عن الحق والحرية والاخلاق ؛ واما هم في جميع المراحل فقد نشروا الفقر والخراب والجهل والظلم وهدموا الجوامع ودافعوا عن الباطل والرذيلة والاجرام .

٤ ــ ان الشمال الافريقي بالنسبة الينا نقطة انطلاق وقاعدة استقرار، لا لاطلاق الصواريخ وتخريب المدن ، بل نقطة انطلاق للتحرير والتمدين واشعاع الحضارة ونشر الرسالة واقرار دعائم السلام الحقيقي ، وبذلك نعطي دول آسيا وافريقيا الناهضة ضد الاستعمار نموذجا حياً ومثالا لخذلان الاستعمار ، ومشجعاً على المضي في طريق التحرر الكامل لجميع هذه البلدان ، ونقيم بينها وبين أوربا وامريكا الاستعماريتين خطاً فاصلا وحاجزا منيعاً ؛ ولذلك كان من واجب هذه الشعوب جميعاً على اختلاف جنسياتها واديانها ان تناصر ثورة الجزائر لانها قوة لها واضعاف لاعدائها ، وفي انتصارها كسب كبير لقضاياها الحاضرة وضمان لمستقبلها .

٥ ــ ولهذه المعاني كلها بالذات تحرص دول الاستعمار على كسب معركة الجزائر لان في انتصار ثورتها سقوط أكبر حصن من حصون الاستعمار وانهيار أضخم قاعدة من قواعده ، وخذلانا لمبدأ الاستعمار من أساسه ؛ ولهذا نجد جميع الدول الاستعمارية تتظاهر وتتعاون مع فرنسا في هذه الحرب المجرمة الاثيمة ، فنرجو الله أن يكون انتصار ثورة الجزائر قضاء عليها جميعاً ، وهذا ما يجعل من واجب الشعوب الحرة وجميع الذين يكرهون الظلم والاستعباد ان يكونوا في جانب الحق

وان يناصروا ثورة الجزائر في المجالات الدولية وغيرها ، لان فيها انتصاراً للحق وقضاء على الظلم وتقدماً نحو الامن والسلام العالمي .

٦ ــ ولقد امتازت ثورة الجزائر بانها ليست ثورة زعماء أو أحزاب بل ثورة شعب كامل تحمّل المآسي وحقد على الاجرام والظلم وهب ليثأر لنفسه ولكرامته وللحق وللانسانية ولم يكن له الا ايمانه بالله وعزيمته ومضاؤه سلاحاً في المعركة ، فكانت دوافع الثورة داخلية وكانت بعيدة عن أي دولة من الدول الاجنبية .

ان في انتصار ثورة الجزائر انتصارا للعرب وللشعوب الاسلامية ، بل لجميع شعوب الشرق المضطهد المستعمر ، وللاسلام وحضارته ، وللانسانية وامنها وسلامها .

الفهرس

	الصفحة
مقدمة الكتاب	٣
القسم الاول :	١١
ازمة الحضارة والامة المنقذة	١١
بين القومية والانسانية	٢١
ملاحظات هامة حول تكوين الامة	٣١
مفاهيم القومية	٣٣
على الصعيد العربي	٤٥
الصلة بين العروبة والاسلام	٦٧
التيارات الفكرية في البلاد العربية	٧١
القسم الثاني :	
الامة العربية ورسالتها	٨٦
العناصر الخالدة من تراث الامة العربية	١١١
القومية والانسانية ، العروبة والاسلام :	
العرب والحضارة الانسانية	١٣٩
حكمة اختيار العرب لتأسيس المجتمع الانساني	١٤٥
محمد رسول الله وقومه	١٤٩
القرآن والامة العربية	١٥٥
أثر صاحب الرسالة في وحدة العرب وتوسعهم	١٦١

الصفحة

البطولة العربية :

بين المادية والمثالية ١٧٧

مفهوم البطولة عند العرب ١٨٢

مراحل البطولة العربية وخصائصها ١٨٧

مدرسة البطولة ومخرج الابطال ١٩١

منطقة الثقافة العربية في العالم ١٩٧

معركة الجزائر وآفاقها ٢٠٧

الفهرس ٢١٥

آثار المؤلف المطبوعة

	سنة الطبع
فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ	١٩٤٠
رسالة في عبقرية اللغة العربية	١٩٥٦
نظرة الاسلام العامة في الوجود واثرها في الحضارة	١٩٥٨
من منهل الادب الخالد	١٩٥٩
فقه اللغة : دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية	١٩٦٠

تحت الطبع

في قضايا اللغة

احاديث في العقيدة

صدر عن مؤسسة :

دار المطبوعات العربية بدمشق

الكتب التالية :

من روائع حضارتنا	للاستاذ الدكتور مصطفى السباعي
قصص من التاريخ	للاستاذ علي الطنطاوي
رجال من التاريخ	للاستاذ علي الطنطاوي
صور وخواطر	للاستاذ علي الطنطاوي
اشتراكية الاسلام	للاستاذ الدكتور مصطفى السباعي الطبعة الاولى (نفد)
رجال الفكر والدعوة في الاسلام	للاستاذ العلامة ابو الحسن الندوي

تحت الطبع :

اشتراكية الاسلام	للاستاذ الدكتور مصطفى السباعي الطبعة الثانية
في الهند والسند وجزيرة جاوة	للاستاذ علي الطنطاوي

Back

طبع هذا الكتاب في المطبعة الهاشمية بدمشق

*PB-37348
5-20T
C-C

Date Due

Demco 38-297

NYU - BOBST
31142 02824 4930
DS225 .M8
al-Ummah al-Arabiyah fi maraka

الثمن ٣٠٠ ق.س
٤٠ ق.م